أحلام بالحرية

عائشة عودة

أحـلام بالحـرية

(الجزء الأول من تجربة اعتقال فتاة فلسطينية)

عائشة عودة

مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية

رام الله، فلسطين

Dreams of Freedom

Aysheh Odeh

© Copyright: MUWATIN - The Palestinian
Institute for the Study of Democracy
P.O.Box: 1845 Ramallah, Palestine

Second Edition - Revised
2007

ISBN: 978-9950-312-37-1

This book is published as part of an agreement of cooperation
with the Chr. Michelsen Institute - Norway

جميع الحقوق محفوظة

مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية

ص.ب ١٨٤٥، رام الله، فلسطين

هاتف: ٢٩٥ ١١٠٨ -٢ -٩٧٠+، فاكس: ٢٩٦ ٠٢٨٥ -٢ -٩٧٠+

البريد الالكتروني: muwatin@muwatin.org

الطبعة الثانية، مزيدة

٢٠٠٧

يصدر هذا الكتاب ضمن اتفاقية تعاون مع مؤسسة كريس مكلسن – النرويج

تصميم وتنفيذ مؤسسة ناديا للطباعة والنشر والإعلان والتوزيع

رام الله – هاتف ٠٩١٩ ٢٩٦ – ٠٢

ما يرد في هذا الكتاب من آراء وأفكار يعبر عن وجهة نظر المؤلف ولا يعكس
بالضرورة موقف مواطن – المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية

إهداء

إلى روح أخي «كامل» الذي رعاني طفلة وغرس فيّ الانتماء للوطن وعياً وعملاً وعطاء.

الى روح أمي «حُسن الشلبي» التي علمتني الإباء.
إلى أختي «وزينة» التي رافقت عذاباتي صموداً وثباتاً.

إلى زوجة أخي «نجمة» التي سمت فوق العذابات بقلب كبير وكنبع من الحب والحنان.

إلى رفيقاتي وأخواتي اللواتي شاركنني أحلام الحرية ودربها، وجدلنا معاً معركة صمود في وجه الطغاة.

إلى كل الحالمين والحالمات، المناضلين والمناضلات من أجل الحرية وكرامة الانسان.

إلى كل هؤلاء .. أهدي هذا الكتاب.

عائشة عودة

المحتويات

تقديم	٧
أحلام بالحرية	٩
منتصف الليل	١٣
التحقيق	٥٧
اعتراف وما بعده	١٠١
ويتشقق الجدار	١٣٩
استئناف الحياة	١٥٧
زقزقة	١٦٧
مع المجموعة	١٧١
تجربة الكتابة	١٩٥

تقديم

تجربة السجن واحدة من أوسع تجارب الشعب الفلسطيني وأشدها عمقاً وألماً. فقد مر بها مئات الألوف من النساء والرجال والأطفال، كما مر بعذابها أهلهم وذووهم. غير أن هذه التجربة لم تسجل بما يكفي من السعة والقوة لكي ينكشف السجان الإسرائيلي عارياً أمام محكمة الإنسانية. وعليه، فما زال أمامنا عمل كبير جداً من أجل توثيق هذه التجربة، والكشف عن آلامها وجروحها وبطولاتها.

وعلى طريق إنجاز هذا الهدف، تقدم سلسلة التجربة الفلسطينية، التي تصدرها مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، الجزء الأول من ذكريات المناضلة عائشة عودة حول تجربة الاعتقال والتحقيق والسجن. ومن دون مبالغة، يمكن القول إن هذا الكتاب، برهافته وجماله ودقته وعمقه في وصف التجربة المؤلمة والعظيمة معاً، سوف يكون علامة فارقة في عالم أدب السجون في فلسطين.

لم تكتب عائشة تجربتها وحدها، بل لمست تجربة بلد بكامله، بلغة حارة مثقفة سليمة ومتأملة. فقد ألقت في طريقها نظرة على الورود والطبيعة والوجوه، نظرة مليئة بالود والمحبة.

إنه، إذن، كتاب عن البيئة والطبيعة والناس والحياة والسجن معاً.

لكنه فوق هذا وذاك كتاب عن الصبايا، عن النساء الرائدات، اللواتي كسرن الخوف والمحرم وانخرطن في الصراع الوطني، الذي كان أيضاً صراعاً ضد التقاليد البالية المكبلة. تجربة هذا النفر من نساء فلسطين لم تكتب بعد، لكن عائشة أخذت على عاتقها أن تبدأ هذه المهمة، أو أن تنجز جزءاً منها.

وكان من نتائج هذه المهمة الضرورية أننا حصلنا على كتاب ممتع لا شك في قيمته وجماله.

المحرر

أحلام بالحرية

انتبهت لاسمي يتردد، ثم لَمَسَتْ كتفي يدٌ، سحبتني من أحلامي، وأعادتني إلى واقعي.

كنا نقف على رصيف شارع القدس في رام الله، أمام مكتب سفريات العلمين، وقد ودعنا أخي للتو، مسافراً إلى بلاد بعيدة بعيدة، تقع خلف سبعة بحور، كما كنت أسمع النساء تقول، والوصول إليها يحتاج إلى شهر من السفر ليلاً ونهاراً في السفن والبحار. والمسافر إليها، مفقود، إلا ما ندر، ممن تكتب له النجاة من أهوال السفر، ويشده الحنين إلى الوطن!

كانت أمي تبكي (ومتى لم أرها تبكي؟) وتضرب صدرها بيديها وتندب: "يا رُمْلتي يا وحدتي يا قطيعتي". وأخواتي أقمن (مناحة)، يلطمن خدودهن ويندبن (قطيعتهن). بنات عمي بدورهن يبكين وهنّ يرددن "الله يرجعه بالسلامة". وكان الرجال مرتبكين أمام حزن النساء، عمي يصرخ بهن كي يكففن عن البكاء والعويل.

- انظرن إلى عائشة كيف أنها لا تبكي!

قال ذلك "خالد" ابن عمي وهو يقف إلى جانب والده الذي كان يحيط كتفي بذراعه بحب وحنان.

- إنها تفهم أكثر منكن، رغم أنها أصغركن.

علّق عمي وضمني إليه قليلاً.

أحسست بامتنان وحب كبيرين لعمي. تمنيت لو أن أمي وأخواتي لا يبكين. "لماذا تبكي النساء دون الرجال؟" إني أمقت الحزن والبكاء. ماذا لو اختفى الحزن من الحياة فلا أرى أمي تبكي أبدا؟

لكن أمي لم تتوقف عن البكاء، ودمعها هي وأخواتي لم يتوقف منذ أحضر أخي تذكرة سفره مقابل رهن البيت لوكالة "نعواس" للسفر.

كانت أمي ترتعد خوفاً من المستقبل. ماذا لو حصل لابنها الوحيد مكروه لا سمح الله؟ أو نسيها وبناتها ونسي البلاد كلها؟ ما الذي سيحل بها وببناتها إذا حضر "نعواس" بعد ستة أشهر واستولى على البيت ورمى بنا إلى الشارع؟ أتصبح هي وبناتها بلا رجال وبلا سند وبلا بيت كذلك؟

إنه يسافر ويتركها مرهونة لقدر ترتعد فرائصها منه خوفاً. فكيف ستكف عن البكاء؟

أمي وأخواتي يبكين خوفهن وقلقهن. أما أنا، ورغم القلق الكامن في وعيي من المستقبل الغامض والمخيف، كنت لحظتها، مأخوذة بعالم من الحرية والروعة، انبثق داخلي وصنع لروحي أجنحة، تطير خلف تلويحة يد أخي المودعة، ترف كجناح حمام يطير نحو أفق بعيد.

بعد أن وثّقت حقائب السفر فوق السيارة، اتخذ أخي مكانه في المقعد الأول. حين انطلقت السيارة في اتجاه القدس، أخرج يده وراح يلوح لنا مودعاً. خطفتني حركة يده تلك. التصقت روحي باليد الملوحة ترفرف كجناح طير. السيارة تبتعد وأنا أبتعد معها. انفصلت عما كان يدور حولي! اجتزت سهولاً وجبالاً وبحاراً ووصلت إلى بلاد ومدن كبيرة وجميلة تقع على شواطئ بحار. ركبت السفن العائمة في البحر. "يا لروعة الحرية التي يمتلكها أخي، يا لروعة حياته! سيركب البحر وسيصل إلى بلاد بعيدة ومجهولة، يكتشفها، يتجول فيها وحده! وحده حراً هكذا كطير! يا لروعة ذلك! هل أستطيع امتلاك حرية مثل أخي؟ أسافر وحدي وأتجول في عوالم مجهولة وحدي"؟ "آه ما أروع الحرية. لكن لن يسمح لي أهلي! ماذا لو كنت ولداً أو بلا أهل؟ هل سأصبح حينها حرة مثل أخي؟ أسافر وحدي؟ أقرر وحدي؟ أتحمل المسؤولية وحدي؟".

تلك الأحلام والصور أصبحت وشماً في وعيي لا يمل من استحضارها أبداً.

كان ذلك يوم الجمعة الثاني من شباط ١٩٥٦م.

تحضرني تلك اللحظات، وأنا أقف قبالة ابن عمي خالد في (حوش) دار أبو سلامة يوم الجمعة الأول من آذار ١٩٦٩م.

وقفنا نحبس أنفاسنا مما هو آت، وكان علينا أن نقرر أخطر القرارات في حياتنا، فجيش الاحتلال الإسرائيلي يطوق بيتينا يريد اعتقالنا.

وها أنا في هذا اليوم، الأول من آذار للعام ١٩٦٩م، أقف مع خالد، ابن عمي، على حافة مستقبل غامض ومجهول، زاخر بالصعوبات والتحديات، وعليّ أن أقرر تحمل المسؤولية وحدي، وأواجه الصعوبات والتحديات وحدي.

ها أنا أقف مع ابن عمي على قدم المساواة، وأتخذ قراراً يعاكس قراره مائة وثمانين درجة.

هو يقرر الاختفاء وأنا أقرر المواجهة. هو يتجه شرقاً نحو البلدة القديمة، وأنا أتجه غرباً نحو بيتنا المحاصر بجنود الاحتلال.

قراري لم يكن ابن تلك اللحظة. كان قد اتخذ منذ الصباح.

منتصف الليل

حوالي الساعة الواحدة من ليلة أمس، دق باب بيتنا دقاً عنيفاً مع إضاءات كاشفة.

تزايدت دقات قلبي وعلا ضجيجها وأدركت أنهم جنود احتلال جاءوا لاعتقالي، معتقدة أن أحداً ما، كان يراقبنا (خالد وأنا) أثناء تنظيفنا للأسلحة ذلك المساء. علق سؤال مربك ومحير حول سرعة معرفتهم، وطافت بي الظنون: من يكون الشخص الذي يراقبنا؟ تصورت أن اعتقالي أصبح قدراً لا راد له. وكالمؤمنين الذين يستقبلون القدر بصبر، أردت أن أستقبل اعتقالي كذلك.

نهض كل من في البيت على القرع المتواصل الشديد؛ أمي كانت تنام على الشرفة التي تتصل بمدخل البيت، جاعلة من نفسها حارسة له. اقتربت مني وقالت: "قومي يا قروطة، هؤلاء يهود"، وبعد أن أدارت ظهرها لتذهب إلى الباب، وقد تعالى القرع دون توقف، التفتت نحوي وأصدرت أمراً:

- ابقي في التخت.

تقدمت مني "نجمة" زوجة أخي وأخذت تستحثني على الإسراع في إعطائها أي شيء أريد تخبئته.

علت حدة القرع على الباب. خلت أن أركان البيت تهتز. فتحت أمي شباك الشرفة المجاور للباب وصاحت بصوت امتزج فيه الخوف بالجرأة:

- مين، وشو بدكم؟ أنا ماعنديش رجال، احنا بس حريم وأطفال.

توقف قرع الباب وقال أحدهم: ما تخافي يا حجة احنا بس بدنا نسألكم سؤال. أجابتهم: تفضلوا إسالوا من عندكم.

ركل أحدهم الباب ركلة قوية تصورت لوهلة أن الباب قد انخلع وكان يهدد:

- أفتح أحسن ما نخلع الباب.

تدفق الجنود إلى البيت كما يتدفق ماء السد حين ينهار جداره. اقتحموا كل الأنحاء مسلطين أضواء كشافات بنادقهم على كل زاوية. اختلطت حركة الأجسام والظلال وضجيج حركتهم مع طرق الأبواب وشكلت جواً ثقيلاً ومرعباً فاض به المكان. تمركز كل جندي في موقع، مسيطرين على مختلف الأجزاء، أيديهم على الزناد ورؤوسهم تتحرك يمنة ويسرة كأنما ركبت على زنبرك. تسمّرْنا - أمي وزوجة أخي وأنا- أمام ذلك المشهد، كل في مكانه. عيون أمي كانت تدور في محاجرها تنقل نظراتها بينهم وبيني، بينما وضعت يدها على فمها، ربما كانت تداري صرخة تود إطلاقها في وجوههم أو تداري مخاوفها التي كانت تقذفني بها منذ أسبوع.

وقف مسؤولهم في نقطة مركزية، يشرف عليهم بنظراته. كان يميل إلى القصر، ممتلئاً، وعلى تماوج الإضاءة المختلفة، بدا لون بشرته بين الأسمر والقمحي، وعيونه تبرق كعيون نمس، فوق شاربين كثيفين.

كان يحمل في يده مصباحاً كهربائياً يضيئه حسب حاجته. عندما اطمأن إلى سيطرته التامة على ساحة معركته، تفحص وجه كل واحدة منا، ثم تقدم نحوي وسألني:

- لو تسمحي، شو اسمك؟

كان سؤاله بدماثة وبلغة عربية سليمة، كأن ما حدث للتو لا يعلم عنه أو كأنه حدث في عالم آخر. أجبت:

- عائشة.

توجه بسؤاله نحو زوجة أخي:

- وأنت؟ ما اسمك؟

- نجمة.

لم يسأل أمي. الأرجح لأنها امرأة كبيرة السن.

عاد وأدار وجهه نحوي وسأل:

- أين عائدة؟

خف توتري وتنفست الصعداء قليلاً. فمجيئهم لا شأن له بما جرى الليلة، ما يعني أنه لم يكن من أحد يراقبنا أثناء صيانتنا للأسلحة.

- لا يوجد عندنا هذا الاسم.

أمر الجنود بالبحث من جديد في البيت. وعندما تأكد أن لا غيرنا، عاد نحوي سائلاً:

- هل لك أن تطلعينا على هويتك؟

أخرجت جواز سفري الأردني من حقيبتي التي كانت على علاّقة في القرنة المجاورة للتخت وقدمته له. دقق بالاسم وأعاده إلي معتذراً عن الإزعاج. ثم قال إن لديه بعض الأسئلة:

- هل تعرفين رسمية عودة؟

دق قلبي دقات سريعة وقوية، ولا بد أن لوني قد انخطف. حمدت الله في سرّي أن الوقت ليل كي لا يبدو عليّ الانفعال. سيطرت على صوتي وقلت:

- لا.

- هل تعرفين بشير الخيري؟

- لا.

- هل تنشطين في جمعية إنعاش الأسرة؟

- لا.

اعتذر عن الإزعاج مرة أخرى وخرج هو وجنوده. بعد أن هبطوا الدرج، عاد أحدهم وسألني أن أدلهم على بيت "علي عمار" فرفضت، وقد زودني الرفض بطاقة كنت بحاجة إليها وباحترام للنفس.

أخذت أمي تلهج بأدعيتها مخاطبة ربها مستعينة به على القوم الظالمين، كما كانت تطلق عليهم دائماً، ثم أمطرتني بأسئلتها. حاولت طمأنتها للتأثير عليها حتى تعود إلى النوم، وتظاهرت بالنعاس الشديد؛ هرباً من

شكوكها، ولأخلو إلى نفسي لتقييم الموقف.

دقت المداهمة طبول الخطر.

هل سؤالهم عن رسمية يعني اعتقالها؟ متى تم ذلك؟ لقد التقينا عصراً. هل من أسلحة ضبطت لديها؟ هل من الممكن أن تعترف؟ ثقتي بها عالية، فأبعدت الاحتمال. لن تكون أقل صموداً من رفيقتينا لطفية الحواري وسارة جودة اللتين تم اعتقالهما منذ أكثر من سبعة أشهر وتم توقيفهما إدارياً.

و"بشير الخيري" الذي تم اعتقاله قبل ثلاثة أيام؟ هل ضللهم باعترافه على عايدة بدلاً من عائشة؟ أم لا علاقة له بذلك، وأن آخرين قد اعتقلوا دون أن أدري؟

و"علي عمار"؟ ما معنى سؤالهم عنه؟ هل سيعتقلونه الليلة؟ ومن الذي اعترف عليه؟ أين الخيوط التي تقود إلى معرفة الحقيقة؟ ما مقدار الخطر الذي يداهمني؟

ماذا علي أن أفعل؟

أأختفي؟

أم أختار المواجهة وخوض تجربة الاعتقال؟

تراكضت الأسئلة في رأسي كأنها خيول سباق فرت من فرسانها. والخطر يقرع أجراسه كأديرة "الطيبة" وهي تدعو المؤمنين لصلاة يوم الأحد.

والخيارات؟

جميعها صعبة.

وعلي أن أقرر خياري الصعب، الليلة وقبل مجيء الصباح، وقبل عودتهم التالية.

تنبه عقلي تماماً وبدأ يعمل كفلاح نشيط في ساعات الصباح.

كلما اقتربت من أحد الخيارات، بدا لي طعمه مراً، فأسرعت في رفضه وتناولت غيره. كنت كمن وقع في دوامة في عرض بحر هائج متلاطم الأمواج.

تقافزت الاحتمالات:

أختفي!

ولكن إلى أين سأذهب؟ كيف سأختفي؟ كيف أعيش حياتي وأنا مختبئة؟ أية مخاطر وأية إحراجات تنتظرني وتنتظر غيري؟ كم من الخوف سيبقى مرافقاً لي؟ هل سأختفي فترة ثم أعود إلى الظهور، أم سأضطر إلى المغادرة إلى الأردن كما فعل كل من أخي ووداد قمري؟

استعرضت في ذهني شريط تجربة أخي وتجربة وداد قمري المتشابهتين: اختفى أخي ثلاثة أشهر تقريباً، مشرداً من بيت إلى بيت، ومن منطقة إلى أخرى. ولما كانت مناطقنا غير واسعة ومدننا صغيرة، كان الاختفاء لفترة طويلة يكاد يكون مستحيلاً. ذاق خلال اختبائه ما هو أصعب من الاعتقال: قلق ورعب دائمان، وتعطيل لحياته وإمكانياته، بل تحول إلى عبء كبير على البيوت التي اختفى فيها. فما عاد أفراد الأسر يستطيعون العيش بأمان. والبيت معرض للنسف وأفراده معرضون للاعتقال.

تابعت بنفسي تفاصيل اختباء أخي وأشرفت على تنقلاته. قرأت القلق والخوف في وجوه أصحاب البيوت الذين اختبأ أخي عندهم. أدركت

التضحيات التي يقدّمونها عندما يخفون المطلوبين في بيوتهم، -وما زال بيت أختي أنقاضاً، وزوجها مازال يقبع في السجن منذ عام، بسبب إيوائهم فدائياً لليلة واحدة وتقديم الطعام له- وبسبب من هذه الصعوبات وهذا الحصار، اضطر أخي إلى الخروج إلى الأردن تهريباً، عودته إلى أرض الوطن غير ممكنة ما دام الاحتلال قائماً. وبعد عام تقريباً حصلت تجربة شبيهة مع وداد قمري التي اختبأت أربعين يوماً ثم خرجت تسللاً إلى الأردن وكانت معرضة للقتل أثناء اجتيازها الحدود!

لا. لن أختفي ولن أهرب.

صور وذكريات زياراتي لعمان، بأجوائها المفعمة بالحيوية، وبخاصة تلك الزيارة غداة معركة الكرامة، كانت جميلة وجذابة تشدني إليها.

كان الجيش الإسرائيلي قد اندحر في اجتيازه نهر الأردن عبوراً إلى مواقع الحركة الفدائية في منطقة الكرامة شرقي النهر. تصدّى له الفدائيون وبعض القطاعات من الجيش الأردني، وسجلوا أول انتصار على الجيش الإسرائيلي بعد هزيمة الجيوش العربية في حرب الأيام الستة.

في اليوم الثاني وربما الثالث من معركة الكرامة -لا أذكر بالضبط- قررت الذهاب لزيارة أخي في عمان. ومنذ اجتيازنا الجسر الخشبي -الذي تغني له فيروز- (وكنا نجتاز الجسر بالسيارات مباشرة بين رام الله وعمان) بدت لنا مظاهر الانتصار وآثاره على معنويات الناس كافة. بدأ السائق بسرد القصص البطولية، وتطوع بأخذنا جولة على حسابه في أرض الكرامة ليطلعنا على الدبابات الإسرائيلية المحروقة، وليروي لنا قصة كل دبابة وكل شهيد، والبطولات الخارقة التي أظهرها الفدائيون. وفي عمان كانت قدسية الفدائيين قد عبق بها الهواء حتى السماء. امتلأ الناس ثقة بأنفسهم وفي المستقبل، كأن الهزيمة لم تلحق بهم يوماً. كان الناس

يعيشون عيداً جديداً غير تلك الأعياد التي نعرفها. واستقبلني أخي منشرحاً. وطاف بي في كل مكان، التقينا بأعداد كثيرة من الفدائيين والفدائيات. سهرنا حتى الثالثة صباحاً. أحسست بحرية تنفستها خلايا كينونتي. أدهشتني تلك الأجواء الجديدة المفعمة بالأمل والثقة بالنفس والمستقبل. كانت بداية عهد جديد. أحسست بدوري أنني أخلق من جديد. كل شيء يخلق من جديد، جميلاً، واعداً، مدهشاً وحراً. لعلني أهرب إلى عمان فهناك الحياة جميلة وواعدة!

لكن هاتفاً تمطى في داخلي وقال: لا. لن أهرب من الوطن.

وكانت (لا) قوية وقاطعة، وكان بها سر تغلغل في أعماقي وأصبغ على الوجود معنى.

والاعتقال؟

كان لتجربة اعتقال الرفيقتين "لطفية الحواري" و"سارة جودة" أثره في مساعدتي في خياري.

"سارة جودة" من القدس. تم اعتقالها وتوقيفها إدارياً قبل أكثر من نصف سنة. واظبتُ على زيارة أمها وتابعتُ أخبارها. منذ أربعة أيام فقط، كنت في زيارة لأسرتها، كانت أمها متفائلة بسبب ما سمعته من المحامي عن إمكانية خروجها من المعتقل بعد عشرة أيام على الأرجح. إضافة إلى صورة مشرقة لصمودها داخل السجن. وصور الصمود تنتج نفسها في النفوس.

"لطفية الحواري"، خرجت من المعتقل قبل أسبوع فقط بعد أن أمضت سبعة أشهر اعتقالاً إدارياً. ولطفية كانت مسؤولتي التنظيمية قبل اعتقالها. كتبت لنا رسائل سرية وهي في معتقل نابلس حدثتنا فيها عن

تجربة الاعتقال، وقالت فيها إن الصمود ممكن، وإن العدو ليس قوياً كما نراه من الخارج، والتناقضات بين أفراده عميقة. كأن الاعتقال كوة على عالم مجهول، واكتشاف للذات وللآخر. هذا كلام سمعته كذلك من "فرحان عبد اللطيف" بعد خروجه من اعتقال إداري دام ستة أشهر. وفرحان كان نقابياً نشيطاً وكان يختلف معنا في رؤيته السياسية. كان يعارض اندفاعنا للمقاومة المسلحة ويرى ضرورة التأسيس والإعداد الجيد قبل البدء في المقاومة خوفاً من التراجع بسرعة.

الصمود ممكن يا عائشة، فلماذا تهربين من الاعتقال؟

والتعذيب؟

"عبلة طه" تحدثت عن تفاصيل التعذيب الذي تعرضت له في الإذاعات العربية.

وكانت عبلة قد اعتقلت قبل حوالي سبعة أشهر -نفس فترة اعتقال "لطفية" "وسارة"- من على الجسر آتية من الأردن، وقد ضبطت تحمل رسائل تنظيمية. كانت حاملاً وتم إجهاضها أثناء التحقيق إثر تعرضها للضرب من قبل سجينات إسرائيليات (مومسات) كما ذكرت في أحاديثها وفي مقابلاتها الإذاعية. وكانت قد حكمت أربع سنوات سجن. كان حكمها حدثاً مهماً في ذلك الحين، ونظم التنظيم من أجلها حملات دعم ومطالبة بالإفراج، فتم إبعادها للأردن.

وفي حين أعتبر آخرون أن الإبعاد نجاح لجهود حملة التضامن معها، كان إحساسي غير ذلك. كان غامضاً ومربكاً. شيء ما يقبع في أعماقي يقول لا، كان الإبعاد ينهض في داخلي كشعور ضبابي يفضي بي إلى مأساة العام ١٩٤٨.

"لن أموت من الضرب! و "الضربات التي لا تميتني، تقوّيني" .

سأواجه .

ومع وصولي هذه النتيجة، أخذت أدخل عالم النوم، بينما أخذت أمي تنهض لصلاة الصبح .

اليوم هو الجمعة، الأول من آذار، وما زلنا في عطلة عيد الأضحى .

صحا كل من "نائلة" و "عودة" وجاءا يلعبان معي . ركب عودة على ظهري وجعل مني حماراً، (حا، حا، حا) أخذ يرددها . كان ذلك كفيلاً بأن يضحكني وينسيني ما ينتظرني، وكاد يدفعني إلى التراجع عن قراري . فهل يعقل أن أحرم من نبض الحياة هذا؟

كانت أمي قد أحضرت خبيزها الساخن من الطابون . وقد عبقت رائحته في البيت وجعلتني أرمي اللحف وأجري إلى المطبخ، لأجد الإفطار قد أعد من قبل أختي وزوجة أخي . كانت الأسئلة ما زالت عالقة في عيون أختي وهي التي تنبهت لتأخري في العودة إلى البيت في تلك الليلة . كانت عيونها تتهمني بالانغلاق عليها، أليست أختي الوحيدة وموضع ثقتي؟ أما زوجة أخي فكانت تحمد الله لأن الأمر كان سليماً .

لم أنظر في وجه أمي الذي كان جاداً ومقطباً . أطرقت برأسي وأخذت أتناول الطعام، وكنت ساهمة حين داهمتني بسؤالها :

– من تكون عائدة التي سألوا عنها؟

كانت تسألني وهي تغرز عيونها في وجهي . وكان الجواب رد فعل سريع :

- لا أعرف.

- ورسمية؟

- لا أعرف.

لم تقتنع أمي أن ما جرى الليلة كان مجرد خطأ في الاسم، وإنما نذر شؤم ما فتئ قلبها يحدثها به منذ أيام. حاصرتني بمخاوفها وشكوكها منذ أسبوع، وها هي تستكمل الحصار بأسئلتها. أحسست أني بحاجة لاستنشاق هواء نقي. خرجت من البيت، كأنما أهرب من وجه أمي. ورغبت في الاختلاء مع أفكاري. أخذت أرش الأزهار التي زرعتها أمام البيت بالماء.

كانت الساعة حوالي الثامنة صباحاً عندما توقفت الحافلة القادمة من رام الله أمام بيتنا. نزلت منها فتاة تمسك طفلاً بيدها. توقفت وانتظرت حتى تحركت الحافلة، ثم قطعت الشارع إلى الجهة المقابلة وسارت قليلاً، ثم عادت وقطعت الشارع من جديد ودخلت بوابة بيتنا. عندها فقط عرفتها. كانت "سامية الطويل" وقد ارتدت ثوباً فلاحياً ولفت رأسها بشاشة بيضاء كما تفعل نساء شعبنا، وزادت من التمويه بأن أحضرت أخاها الصغير. أدركت قبل أن تنطق أنها تحمل أخبار اعتقالات جديدة.

- اعتقلوا رسمية هذه الليلة، الساعة الواحدة.

- ألقت الخبر الذي جاءت من أجله.

- وهل ضبطوا عندها أسلحة؟

- لا أعرف.

أطرقنا مفكرتين بعد أن أبلغتها بما حصل من مداهمة في الليلة الفائتة.

- يجب أن تأخذي احتياطاتك وتنظفي بيتك من أية مستمسكات.

استأذنت وقفلت عائدة قبل أن يتنبه أحد لوجودها، كأنها عابرة طريق تسأل عن أمر ما. وتجاوبت مع رغبتها، سرت قليلاً معها في اتجاه الشارع وقمت بحركات بيدي كأنما أدلها على مكان تسأل عنه، كان ذلك ضرورياً للتمويه على أمي التي لا بد أن تسأل عنها في حالة رؤيتها. لكني وددت لو تأخرت قليلاً. كنت بحاجة لتبادل الأفكار مع أحد الرفاق أو الرفيقات.

صعدت سامية الشارع مبتعدة عن بيتنا لتعود في الحافلة العائدة إلى رام الله.

"سامية الطويل" طالبة توجيهي. لكن حجمها لا يوحي بأنها تجاوزت الخامسة عشرة من عمرها. تتميز بعيون خضراء واسعة مسيطرة في مساحة وجهها الصغير، ذات نظرة ذكية وحزينة، تعلوها حواجب سوداء كثيفة متصلة، وشعر أسود كثيف ينسدل على كتفيها. كانت فتاة نشطة، جادة. وكانت موضع ثقتنا وتقديرنا، وأهلاً للاعتماد عليها. بيت أسرتها في البيرة يقع على طريق القدس مقابل مخيم الأمعري وقريباً من بيت رسمية الذي يقع في المنطقة نفسها وإن لم يكن على شارع القدس مباشرة.

هل وجدوا مستمسكات في بيت رسمية؟ هل وجدوا لديها أسلحة؟

هل ستعترف رسمية أم ستصمد؟

هل علي تغيير قراري؟

لماذا هذا التردد؟ رسمية متماسكة ولن تعترف.

رأيت أنّ ما قالته سامية يلتقي مع قراري. إن عليّ تنظيف بيتي من المستمسكات. علينا الاستعداد للمواجهة لا الهرب. وكان لذلك الاستنتاج دور في طرد ما نشأ عندي من تردد حول الهرب أو المواجهة.

أمسكت بالفأس ورحت أنبش حول شجرة تفاح في البستان.

كأنّي أنبش الزمن الماضي وأبحث في مستقبل مجهول يبدو كمغامرة كبرى!

كأنّي أعمل على زرع قرار وأدفن ترددي! أحاور الشجرة والأرض بدلاً من البشر!.

أكنت أبحث عن أمانٍ وأحلامٍ تختفي؟

هل أودع أحلام السفر والتجوال وأستبدلها بأحلام المواجهة والبقاء على أرض الوطن؟ أليست الحرية قراراً؟ قرار الالتصاق بالوطن والدخول في صميمه؟ قرار مواجهة العدو حد الالتحام وخوض المجهول رغم الصعاب؟

وإلا، كيف للفأس أن تؤثر في النبت دون اقتحام الأرض ونبشها؟ وكيف للبذرة أن تنمو دون وجودها في التربة تفتت الحصى وتشقّق الأرض؟

رفعت قامتي. ملأت رئتي بالهواء. خبطت الفأس لتبقى واقفة إلى جانب جذع التفاحة. توجهت إلى البيت بخطى واسعة. غيرت ملابسي. أمسكت بيد "عودة"، وسرت نحو بيت "علي عمار" الذي لا يبعد عن بيتنا أكثر من ٣٠٠ متر أستطلع أخباره.

"صبحية" و"باهرة" أخوات "علي" وصديقات طفولتي. أمّهن أحبها كثيراً. كانت صغيرة مقارنة بأمي، كانت مرحة الروح رقيقة حنونة، (تمنيت يوما لو أنها أمي). أحب الجلوس وقضاء الوقت مع هذه الأسرة. لكنها في ذلك اليوم كانت على غير عادتها؛ كانت قلقة على ابنها الذي تم اعتقاله الليلة في قرية "العوجا" في منطقة أريحا حيث يعمل والده.

كنت ما زلت أشرب الشاي، حين دخلت "وردة" (ابنة عمي) إلى البيت كصاروخ وهي تقول لاهثة:

- الجيش في البيت بفتشوا فيه، بدهم إنت، وكمان راحوا على دار اخوي خالد بدهم إياه، والجيش هالقيت محوطين البيتين. اوعي ترجعي عالبيت.

ألقت "وردة" الخبر كمن يلقي قنبلة، وعادت مسرعة تنزل الدرج العالي الذي قطع أنفاسها حين صعدته. خفت عليها من السقوط؛ فهي تعاني من شلل الطفولة أولاً، والدرج حاد الارتفاع ضيق ثانياً. لكنها كانت تطير مسرعة كمطارد يفرّ من مطارديه، وكمنقذ يسرع لإنقاذ غريق. تود أن تكمن في الطريق لأخيها خالد قبل عودته للبيت.

لم تمض إلا دقائق، حتى مرت قوة عسكرية مكونة من ثلاث سيارات عسكرية تعج بالجنود من أمام العلالي - علالي دار عمّار - حيث كنّا. وقفنا جميعا نتابع خط سيرها. لحظات وانتشر الجنود يطوقون بيت "عمر درويش"، وكان بيته لا يبعد عن بيت "علي" أكثر من مئتي متر.

و "عمر" كان عريساً في يومه الأول.

توترت الأجواء حولي، وخيّم قلق ممزوج بخوف على وجوه مضيفاتي. استنتجت أن وجودي الآن أصبح مصدر خوف وتهديد. أمسكت بيد عودة وهبطت درج العلالي، وسرت غرباً في اتجاه الشارع في طريق العودة إلى بيتنا. وقبل وصولي دكان "جمعة" الواقعة في منتصف المسافة تقريباً بين بيتنا والعلالي رأيت "خالد" يوقف (التراكتور) بجانب الحائط الشرقي للدكان. دعاني بإشارة من يده لألحق به بينما كان ينزوي مسرعاً نحو حوش دار أبو سلامة الواقع في الشمال الشرقي من الدكان على بعد مئة متر تقريباً. أدركت أنه يعرف الخبر.

أراد خالد أن ينقل خبر الجيش الذي يحاصر البيتين، لكن "وردة" كانت قد طيرت الخبر كالبرق لكلينا. فبادر بالسؤال:

- ماذا ستفعلين؟

أذهب إليهم لأرى ماذا يريدون.

- هل جننت؟

قالها وفتح عينيه على اتساعهما غير مصدق ما سمعت أذناه.

حاول جاهداً التأثير عليّ لتغيير قراري، فالفرصة متوفرة الآن للهرب، وعليّ عدم إضاعتها، وسيعمل بنفسه لإخراجي إلى الأردن خلال أيام.

- الخروج إلى الأردن من غير عودة إلى الوطن؟!

قلتها باستنكار.

- أتختارين الاعتقال؟

- اختار البقاء في الوطن.

- أنت مجنونة، ولا تعرفين شيئاً عن الاعتقال والتعذيب.

- بل سمعت.

- على أي حال، أنت أدرى بوضعك، وتقررين لنفسك. لكني أدعوك مرة أخرى لإعادة التفكير بقرارك.

- لست على استعداد للتنقل من بيت إلى بيت، ولا أفكر في الخروج إلى الأردن مطلقاً. لن أترك لهم الوطن.

قلت جملتي الأخيرة بشيء من التأكيد. ثم سألته:

- وماذا بشأنك أنت؟

- لن أسلمهم نفسي. قالها بشكل قاطع. وأردف قائلاً: ما زالت ذاكرتي حية بما فعلوه قبل سنة، سبعون يوماً تحت الضرب والعذاب، ثم اعتذروا بقولهم لست الشخص المطلوب.

- ولكنك بقيت في وطنك وبالقرب من أسرتك؟

- وسأبقى في وطني ولن أغادر.

قالها مؤكدا أن موقفه ليس أقل تمسكاً مني في البقاء في الوطن.

(بقي يعيش مهرباً في الضفة الغربية ثلاث عشرة سنة، ثم ألقي القبض عليه وحكم سنتين).

اتضح لكلينا أن كل واحد منا قرر خياره الصعب، وسيحمل صليبه على كتفيه، وأن لقاءنا في المستقبل في علم الغيب. اغرورقت عيوننا بالدمع حين تصافحنا بحرارة، وافترقنا. سرنا في اتجاهين متعاكسين تماماً. سار خالد شرقاً، في اتجاه بساتين دار منصور. وسرت أنا غرباً، في اتجاه بيتنا عبر بستان دار موسى أبو سلامة. بعد هنيهة، توقفت لحظة أنظر إليه؛ كان يسير مسرعاً بين أشجار البرقوق العارية محاذياً لإحدى السناسل.

الأول من آذار ١٩٦٩. الجو ربيعي، والسماء صافية تلامس خبايا الروح. أشعة الشمس رقيقة، دافئة. حركت أعماق الحياة المختبئة من برد الشتاء فخرجت تستعرض نفسها تحت أشعتها؛ أرض البستان مكسوة بأزهار صفراء وحمراء، وأخضر له لون الحياة الغض، يغري القلب بالتدحرج عليه كطفل. شجر اللوز بأزهاره البيضاء يحتفل بعرس الطبيعة. شجر التين، براعمه الرقيقة لم تتفتح بعد على غصون فضية لامعة، أنا عاشقة الطبيعة أنتبه للون الفضي ذاك لأول مرة. وددت لو يطول الطريق أكثر لأسير لساعات في هذا البهاء الإلهي! هل كانت الطبيعة تخاطبني خطاباً خاصاً في ذلك اليوم؟ هل كانت تبثني رسالة ما؟ أكانت تودعني أم تحتفي بي؟! للحظات شعرت أن روحي تدخل في كل شيء في الطبيعة، ولا أريد الافتراق عنها. هل طال الطريق؟ أفلت "عودة" يده من يدي وقطف أزهاراً، عمل باقة صغيرة وعاد وأمسك يدي. قوى خفية كانت تشدّني ولا تريد إفلاتي. بصعوبة فصلت نفسي عنها.

اجتزنا البستان. وصلنا رصيف الشارع مقابل بوابة بيتنا تماماً. حينها، انتبهت لوجود شخص غريب يقف على الرصيف يتلفت يمنة ويسرة.

اقترب منا مسرعاً وارتسم على وجهه سؤال قبل أن ينطق. كان يلبس قميصاً أبيض ذا خطوط بنية وبنطالاً بنياً. كان يميل إلى القصر، ممتلئاً، وصلعة صغيرة تعتلي جبينه. بادر قائلاً:

- مرحباً، أليست هذه صورتك؟

ومدّ يده عارضاً الصورة.

- نعم، هي صورتي.

وقد أدركت أنه من رجال الاحتلال.

طفت على وجهه تعابير غرور استفزتني، قال:

- أرأيت؟ لقد أمسكنا بك بسرعة! أنت مطلوبة لقوات جيش الدفاع الإسرائيلي.

كان كلامه منفوخاً بالغرور. قلت وأنا أرغب في تنفيس غروره:

- أعرف، ولهذا أنا قادمة.

أسقط في يده، وبان استغراب على وجهه.

أكملت سيري نحو البيت، فتبعني كالظل.

لبيتنا مدخل له بوابة على الشارع. يمتد المدخل ثلاثين متراً تقريباً، بعرض ثلاثة أمتار، مرصوف ببلاط حجري من محاجر المزرعة الشرقية الشهيرة بلون حجرها الوردي. وعلى جانبي المدخل سوران بارتفاع متر تقريباً، على واجهتهما بلاط حجر وردي كذلك. وإلى جانب الأسوار

أحواض زراعة امتلأت بالمنثور وعرف الديك وفم السمكة وشعر البنات وورود وأزهار أخرى مختلفة. كنت أرعاها كما ترعى الأم أطفالها. على يمين المدخل بستان صغير من شجر التفاح لم يزهر بعد. على الجهة اليسرى، ثلاثة مدرجات زرعت فيها أشجار ليمون وأسكيدنيا وعنب. وعند الجدار الذي يفصلها عن الشارع زرعت أشجار صنوبر (كريش) وسرو وشجرة حور عند المدخل.

أما البيت فمكون من دورين. نسكن (أمي وأنا وأسرة أخي، زوجته وطفليه: نائلة ابنة ثماني سنوات، وعودة ابن أربع سنوات) الدور العلوي. وقد استكمل بناؤه قبل أربع سنوات فقط، أما الدور السفلي، فتسكن فيه أختي وأسرتها (بيت عمي) وذلك بعد أن نسف الاحتلال بيتهم قبل عام تقريباً إثر اعتقال زوجها "أحمد عودة". نصعد إلى الدور الثاني على درج حجري على شكل "د" له درابزين حديدي، مدخل البيت شرفة واسعة، تشكل رئة البيت ومكان المعيشة، عامرة معظم الوقت بالزوار من الأقرباء والأصدقاء، فيها ثمانية مقاعد من قش الخيزران ومقعد طويل صارت أمي تستخدمه كسرير منذ أن طورد أخي وأصبح مطلوباً لجيش الاحتلال، معتقدة أنها هكذا تحرس البيت والأسرة. تنام بعين مفتوحة وأذنين تلتقطان دبيب النمل كما تقول. من هذه الشرفة ندخل إلى البيت من خلال بابين؛ أحدهما يدخل إلى موزع يوصل إلى غرف النوم التي تستعملها أسرة أخي، إضافة للحمامات والمطبخ. والمطبخ له مخرج يؤدي إلى البستان الخلفي. أما المدخل الثاني من على الشرفة، فهو إلى البيت القديم. من هذا البيت أدخل إلى غرفتي الخاصة التي أضفتها بعد أن أصبحت موظفة ذات دخل مستقل. حرصت على أن تكون غرفتي واسعة الشبابيك لها شرفة صغيرة تكتظ بأصص الزريعة.

البيت القديم، هو درة بيتنا، والأكثر حميمية إلينا جميعاً. ويصبح مجمع الأحباب أيام الصفاء التي شهدنا الكثير منها في آخر سنتين قبل الاحتلال الإسرائيلي العام ٦٧، إثر الاستقرار الذي وصلت إليه حياتنا كأسرة؛ فقد عاد أخي من بلاد الغربة ليستقر ويعمل في وطنه. تزوج، وأكمل بناء البيت. ومن جهتي تخرجتُ وتوظفتُ. أختي كانت قد تزوجت واستقرت في بيتها. أمي حجت للمرة الثانية. هكذا رفرفت السعادة والاستقرار على أسرتنا.

البيت القديم هو البيت الذي رأيت فيه أول نور للحياة. على حيطانه خربشت أول حروف تعلمتها. فيه كانت طفولتي وصباي. وهو البيت الذي بناه أبي أوائل الثلاثينيات. مكون من غرفتين كبيرتين فوق بعضهما: "البيت الفوقاني والبيت التحتاني". البيت التحتاني كنا نستعمله للمعيشة، فيه خوابي المؤونة السنوية من محاصيل القمح والعدس والحمص. وفيه نضع جرار الزيت وعسالي الزيتون ومرطبانات التطالي التي تصنعها أمي من العنب والمشمش والبرقوق، إضافة إلى "جُوَن" القطين والزبيب والزعتر، وزاوية مخصصة للوقود المكون من الحطب الذي نجمعه من أعواد الزيتون والعنب واللوز بعد التقنيب، وأكياس "الجفت"؛ وهو بقايا حب الزيتون بعد عصره واستخراج الزيت منه. في إحدى الواجهات تتوسط الموقدة ونسميها (الوجاق).

في باحته الخارجية مكان (للشاة - الغنمة) وقن الدجاج. في السنوات الأخيرة لم يعد لدينا غنم أو دجاج، وأصبح مكانها حاكورة نزرع فيها النعنع والبندورة والكوسا والبطاطا وغيرها من الخضروات. أما البيت العلوي، فكان للنوم وأمور الحياة الأخرى. كان عبارة عن غرفة واحدة مساحتها الداخلية ٣٠ متراً مربعاً. هندسة بنائه جعلت منه بيتاً كاملاً ومتميزاً. سقفه كمظلة، انحناءاته تشعرك بأنها تحتضنك وتحنو عليك.

سمك حيطانه يزيد على متر، حفرت فيها فراغات وخزائن مختلفة؛ واحدة للملابس وأخرى لأدوات المطبخ، وثالثة استعملها أخي مكتبة ثم ورثتها أنا. له خمسة شبابيك تتميز بارتفاعها الذي يقارب مترين؛ شباكان منهما في الواجهة الشرقية على جانبي الباب، وآخر في الواجهة الغربية مقابلاً للباب، كنا نميزه بتسميته (الشباك الغربي). أما الرابع والخامس فكانا كتوأمين متجاورين يشكلان ما كان متعارفاً عليه بـ"المجوز". وللمجوز حضور خاص في حياتنا لن أتحدث عنه الآن. في الحائط المقابل أي في الجهة الشمالية للبيت، كان قوس "اللحف" الذي طرزت له أختي الكبيرة "جميلة" (رحمها الله)، غطاءً أبيض، عليه الكثير من الورود والأزهار الملونة، رسمتها لها بيدي وخيالي. تحول هذا الغطاء أو (الملاءة) موضع اعتزاز لنا أمام من يأتي لزيارتنا، كأنما نعرض لوحة فنية، ما حدا بالعديد من الصبايا إلى تقليده.

كنا نستثمر فراغات الشبابيك لأغراض مختلفة؛ الشباك الغربي يمتلئ بأصص الريحان (الحبق) ليعبق البيت برائحته مع كل نسمة صيف، إضافة إلى فخارة (شربة) الماء البارد، نسد فتحتها (بكوز شجر الكريش)، شغلت أختي "وزينة" للشربة غطاء بالصنارة وزينته بخرز صغير ملون. إلى جانب الشباك الغربي، رفّ حجري عليه لمبة الكاز والسراج، ثم أضيف الشمعدان -بدلاً من السراج- الذي زيّن بغطاء مشغول بالصنارة على نمط غطاء الشربة وغطاء آخر للرّف نفسه.

على مصطبة الشباك الشرقي الذي يقع على يمين الباب كنا نضع البريموس (بابور الكاز) الذي نستخدمه للأمور البسيطة مثل غلي الشاي، لأن الطبخ كان في البيت التحتاني. وكانت هناك فتحة مربعة بحدود (٧٠*٧٠) في أرضية البيت (الفوقاني) كنا نسميها "السّر"، تفتح على سلّم يوصل للبيت التحتاني، لها غطاء خشبي نخفيه دائماً، ولا نفتحه إلاّ للضرورة

القصوى. كانت أمي تحدثنا عن أهمية "السرّ" حين هرب "أنيس عبد الفتاح" من خلاله عندما داهم الجنود الإنجليز البيت لاعتقاله، إذ كان مطارداً ومحكوماً عليه بالإعدام.

ها أنا أسرد تفاصيل البيت القديم لأكتشف مدى حميميته إلى نفسي. وأتساءل ما إذا كان كل ما له علاقة بالطفولة حميماً، أم أن الحميمية تنبع من البيت ذاته، أم من طبيعة العلاقة معه، أم هي محصلة لها جميعا؟ وها أنا أكتشف بشكل أفضل فلسفة الآباء والأجداد من خلال علاقتهم بأماكنهم وأنفسهم وبالحياة. كم كانت تشبههم!

تغير نمط حياتنا بالتدريج. بناء جديد أضيف وتم إنجازه على مراحل. في البداية، أنجز بناء سكنة صغيرة بمحاذاة البيت التحتاني وشكل سطحها بلكوناً واسعاً أمام البيت الفوقاني. كان ذلك العام ٥٨، وشكل دخلاً لنا حين كنا نؤجره. أما الإضافة الكبيرة، فكانت العام ٦٤ حين أحطنا البيت الفوقاني من جهتين (الشرقية والشمالية) بالبناء الجديد. وأخيراً أضيفت غرفتي الخاصة من الجهة الجنوبية للبيت العتيق، وكان ذلك العام ٦٧.

أشعر الآن وأنا أكتب عن البيت كأنه ماء نهر دافئ يغمرني ولا أود الخروج منه!

سرت في اتجاه البيت، وتبعني الغريب كالظل.

من أسفل الدرج، سمعت صوت أمي بوضوح: "هد دولتها إسرائيل يا رب، واقلب زمانها عليها، مثل ما بتقلب بيوتنا، اسمع مني يا رب، أنا ولية يا ربي ومن عيلة دراويش. لا تخيب دعاي، يا رب العالمين".

صعدت الدرج وصعد الغريب خلفي. كان على البرندة جنديان، أيديهما على الزناد.

البيت العتيق كان مركز الحركة والفعل. وقفت "نجمة" (زوجة أخي) قبالة الباب مباشرة تحتضن "نائلة" بيدها اليمنى بينما يدها اليسرى على خدها تنظر إلى جندي بالقرب منها يفتش اللحف والفراش التي تحولت إلى كومة على أرض البيت. حين رأتني، اتسعت عيونها وعضت على شفتيها وضغطت على خدها استنكاراً لمجيئي. أفلت عودة يده من يدي وجرى نحو أمه والتصق بها كأنما يريد العودة إلى رحمها.

أمي تحركت ودارت كالساقية تضرب كفاً بكف حيناً، وحيناً آخر ترفعهما نحو السماء مستأنفة دعواتها ومسباتها. حين رأتني هزت كفيها في وجهي قائلة وهي تكزّ على أسنانها تعض الكلمات:

- شو بجيبك يا قروطة.

كدت أضحك لولا جدية الموقف.

جندي آخر كان يقف بجانب المكتبة ويرمي الكتب واحداً بعد الآخر، بينما وضع مجلات الحرية (وهي قديمة) جانباً وتمت مصادرتها بعدئذ. وقفت مجندة كانت تعقد ذراعيها أمام صدرها بين الكتب الملقاة على الأرض والشباك الغربي. جندي رابع كان قد أفرغ الملابس من الخزانة وما زال يتحسس بعضها بدقة متناهية. أما الخامس فيبدو أنه أنهى مهامه وجلس على حافة شباك (المجوز)، ما أن رآني حتى وقف وتقدم مني بعد أن تكلّم الغريب السائر خلفي كالظل، شيئا ما بلغتهم التي لم أكن لأفهم منها شيئاً. سألني:

- هل أنت عائشة عودة؟

لفتت انتباهي الشارات الموضوعة على كتفه، لم أكن أعرف دلالاتها، لكنها أفهمتني أنه كبيرهم ومسؤولهم.

- أجل، أنا عائشة.

- نريد اصطحابك معنا للتدقيق في بعض القضايا.

- أنا جاهزة.

فتح ملفاً صغيراً كان يحمله بيده اليمنى بينما سحب ورقة بيده اليسرى ووضعها فوق الملفّ، ثم سحب قلماً بيده اليسرى (أدركت أنه يسراوي) وتقدّم مني خطوة أخرى وهو يقدم لي القلم قائلاً:

- وقعي لنا على هذه الورقة.

كانت الورقة مكتوبة بأحرف عبرية. قلت:

- هذه ورقة مكتوبة بلغة لا أعرفها ولا أعرف محتواها.

- في هذه الورقة نقول إننا فتشنا البيت ولم نجد فيه شيئاً ممنوعاً.

- أعتذر، لا أستطيع التوقيع على ما لا أعرفه.

- حسنا.

قال. ثم طوى الورقة وأعطى أمراً:

- عليك مرافقتنا.

تقدمت من الملابس المنثورة على الأرض لأتناول بنطالاً ألبسه. لكن الضابط منعني من ذلك.

قلت:

- أريد لبس بنطال!

أعطى أمراً للمجندة لتجد بنفسها ما أحتاجه ولترافقني عند ارتدائه.

خلق المنع إحساساً ثقيلاً ذا طعم مر. كان الإحساس الأول لفقداني حريتي الشخصية. تكثّف ذاك الطعم صار علقماً، عندما رافقتني المجندة إلى داخل الحمام، تراقب ارتداء ملابسي، حتى الداخلية منها، وقد منعت أختي من الدخول عندي لتعطيني بعض احتياجاتي. بينما انتظر جندي خارج الباب الذي بقيت المجندة تمسك بحافته لتحول دون إقفاله.

أصدر قائدهم الأمر بالتحرك.

قفزت أمي أمامهم كلبؤة معترضة: "وين بدكم تاخذوا بنتي؟ لا، فش تاخذوها. او تاخذوني معها". كان قولها صرخة ممزوجة بالاستنكار والرفض والاحتجاج. قررت أن أشحذ كامل طاقتي لأبدو أمامها بكامل تماسكي.

قال الضابط:

- لا تخافي يا حجة، بعض الأسئلة ثم تعود بنتك إليك.

"خذوني معها". قالتها وكانت تضع ذيل ثوبها الأبيض تحت زنارها،

وتعصب رأسها بشاشتها البيضاء. كانت تفعل ذلك ما دامت في البيت، أو محيطه، أو حين تستعد للعمل في الأرض.

- يا أمي، لا تخافي، سأعود إليك سريعاً.

- لا. بروح معاك.

قالتها بتصميم، وأفلتت طرف ثوبها، ليصبح سادلاً على قدميها، وحلت شاشتها المعصوبة حول رأسها ولفتها حول رقبتها. اعترض طريقها جندي، مانعاً إيّاها من مواصلة السير:

- ممنوع!

- إبعد من وجهي.

وحركت يدها تأكيداً على قولها. أكملت حديثها: "بخليش بنتي تروح لوحدها معكم".

تدخل الضابط المسؤول وخاطبها:

- لا تقلقي يا حجة، ساعة، وستعود ابنتك إليك.

أكدت أمي موقفها:

- بروح وبرجع معها.

أدركتُ حالة أمي وما يحدثها به قلبها وما تخشاه ويخيفها. كنت وإياها على موجتي إرسال مختلفتين، لا تستطيع إحدانا مساعدة الأخرى في تلك اللحظات فحسب، وإنما تسبب لها الألم.

أسرع الجنود إلى عرباتهم بينما أحاطني كل من المسؤول والغريب والمجندة وجندي آخر، وسار الجميع نحو سيارة (جيب) عسكرية، كانت تقف على الجانب الأيسر من الشارع، بمحاذاة شجرات (الكريش) التي تفصل بيتنا عن الشارع. صعدت المجندة أولاً، وكانت تلبس طنّورة جيشية لم تصل الركبة بينما كان الحذاء طويلاً يصل إليها. أشار المسؤول إليّ للصعود خلفها. جلست كلتانا على المقعد الخشبي نفسه من الجهة اليمنى. صعد الغريب وجلس مقابل المجندة وجلس الجندي قبالتي واضعاً سلاحه الذي يقبض عليه بيديه الاثنتين في حضنه.

جن جنون أمي حين رأتني في السيارة العسكرية. أفلتت من بين الجنود، جاءت مسرعة إلى السيارة تسابقها قبل أن تتحرك. كان الجنود أسرع فحالوا دونها. بقيت تندفع نحوي كسهم شد قوسه في لحظة انطلاق وهي تردد. "بخليهاش تروح لوحدها، بروح معها". كانت أشبه بلبؤة تحاول أن تخلص أطفالها من فم عدو. كانت تصارع الجنود الذين حالوا دون اقترابها. كانت مفجوعة ومزلزلة، كانت فجيعتها تستنزف قواي النفسية ولا أستطيع مساعدتها. تمنيت لو أنها تدرك أن خوفها علي لن يساعدني شيئاً، لو تكف عن محاولاتها اللحاق بي! بحثت عيوني عن أختي وزينة. وحدها القادرة على حسم المواقف المحرجة! كانت تمسك بيد ابنتها "أمل" وتقف إلى جانب "نجمة" على الرصيف عند البوابة، الغضب واضح على وجهها يكاد يقفز منه ككائن يرغب في انفجار. خاطبتها عبر نظرة من عيوني وحركة من الكفين. فهمتني. أعطت ابنتها لنجمة. تقدمت من أمي. أمسكت بها من الكتف، وبلحظة تحولت الابنة إلى أم، والأم إلى ابنة! (هي كذلك في معظم حالاتها) وقالت:

- شو بدك تعملي "لعيشة" لو رحت معها يا حجة؟ تعالي لعندنا أحسنلك.

ثم سحبتها من يدها. أفلتت أمي يدها من يد أختي. وقفت وسط الشارع. وضعت كف يدها اليسرى خلف رأسها وأصبح كوعها كمدفع مصوب باتجاه السماء، شرّعت يدها اليمنى عالياً وشخصت بوجهها إلى الأعلى. أخذت تدور دورات كاملة تبحث عمن في السماء تناديه بصوت كله فجيعة، خلت أن السماوات والأرض ترتج له.

"هد دولتهم يا رب وزلزلهم على أولادهم وبناتهم مثل ما بزلزلونا، هيييييي يا ربي، اسمعني يا الله؛ هد دولة هالظلاّم. وينك انت يا الله؟ . . . انت شايف يا الله ؟؟"

لم يسبق أن رأيت أمي في مثل هذه الفجيعة. كانت تندفع بغريزة كبركان متفجر.

لم أعد قادرة على احتمال معاناتها. وفي الوقت نفسه، عليّ البقاء متماسكة. تمنيت لو يتحركون. أريد أن أبتعد كي لا أرى معاناتها.

حضرت سيارات جيب أخرى. ركب مسؤولهم في الجيب الأول بجانب السائق. تحركت السيارات. غطيت وجهي بيديّ مجنّبة نفسي النظر إلى أمي في تلك اللحظات.

كأني أكتشف علاقة أمي بي وعلاقتي بها لأول مرّة. لم أفكر بها عندما قررت العمل في مقاومة الاحتلال. قررت مواجهة الاعتقال هذا اليوم ولم أضع رد فعلها ومعاناتها في الاعتبار. لم يكن لهذه التفاصيل حساب. هل كان ذلك قسوة؟ أم شوق الشباب واندفاعه لصناعة التاريخ؟

كان اعتبار هذه التفاصيل، تخلياً عن الأهداف الكبيرة. وكنت مشدودة بكليتي لحريتي وحرية شعبي. أريد أن نبرأ من الهزائم، أن نسترد ثقتنا بأنفسنا

وبأمتنا وبكرامتنا. لا يا أمي، لا تفزعي. لن أخذلك فلا تخذليني.

رغم أن حياة أمي حافلة بالأحداث المأساوية والصعبة، لم أذكر أني رأيتها كما كانت عليه ذلك اليوم. عرفتها تواجه الصعاب بتماسك وصلابة. أذكرها يوم موت أبي، ضمتنا في حضنها ومسدت على رؤوسنا وحافظت على تماسكها، ولم أشعر بفقداني لوالدي. لكنها اليوم أشعرتني كأنها تفقدني!

قبل عام تم اعتقالي ليوم واحد، على خلفية إخبارية بنقلي أسلحة إلى القدس لاستخدامها لنسف احتفالاتهم بعيد استقلالهم التي كانوا يعدونها في الشيخ جراح. -وللحق إننا كنا نفكر في ذلك- ولكني لم أنقل سلاحاً بل تنكتي جبنة بيضاء "لوداد قمري" اشتريتهما من قريتنا من دار أبو الشيخ علي. عرفتُ حينها من بلّغ عنيّ بلاغاً متخيلاً. كان صاحب سيارة أجرة على الخط. عمل قبل الاحتلال سائقاً لسيارة أجرة كانت لأخي.

طلبت منه تحميل تنكتي الجبنة لنقلهما إلى القدس. نزل من السيارة وأراد تحميلهما، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة معتذراً لسبب لا أذكره. لا بد أنه لمعت في فكره أخيلة احتوائها أسلحة، -وبخاصة أن أسرتنا عرفت مبكراً كأسرة وطنية على أرضية مطاردة أخي واعتقال أبن عمي ونسف بيته- وربما أغراه الثمن الذي سيقبضه من الإسرائيليين أكثر من الأجرة. في صباح اليوم التالي -وكان يوم جمعة- وقفت سيارة الشرطة أمام دارنا. كان فيها ضابط الشرطة الإسرائيلي "عدني" وقد أصبح معروفاً في المنطقة وبشكل خاص من قبل أفراد عائلتنا لكثرة المداهمات التي قام بها لبيتنا إثر مطاردتهم لأخي. كان يتكلم العربية بطلاقة كونها لغته الأم. لقد ولد وترعرع في اليمن.

اعتقدنا أنها إحدى مداهماته المعتادة. فتش البيت وما حوله، ثم طلب مني مرافقته إلى مركز الشرطة. لم تصرخ أمي ولم تولول. كان تصرفها عظيماً. قالت لي يومها: لا تخافي ولا تهتمي. سنتبعك مباشرة. أرسلت للمختار ولرئيس بلدية البيرة السيد عبد الجواد صالح (وكان يشكل مرجعية وطنية لنا) وحشدت عدداً من الرجال والنساء، سرعان ما كانوا جميعا في مركز الشرطة في البيرة ورام الله. ولم يتركوني حتى تم الإفراج عني.

أما هذا اليوم، فالأمر مختلف. حدّثها قلبها بأمر آخر، لم يقرأه قلبي وربما لم يرغب. قلب أمي يحدثها دائماً، وكثيراً ما تقول: (قلبي يحدثني).

منذ أكثر من أسبوع وقلبها يحدثها ويدق لها أجراس الخطر وهي تلاحقني كظلي وتحذرني:

- ستسجنين!

أجبتها بعناد ولامبالاة:

- لن أكون الفتاة الأولى ولا الأخيرة التي تسجن ما دام الاحتلال قائماً.

- ستنسفين البيت!

أكملت بإصراري العنيد:

- ليس هو البيت الأول الذي ينسف ولن يكون الأخير ما دام الاحتلال قائماً.

نفد صبرها وهددتني قائلة:

- أنا مش قادر عليك، راح أجيب (رجالك) يحطّولك حد.

ومن هم رجالي؟ والأب والعم ميتان؟ والأخ مشرد؟

لا بأس! هناك أبناء العمّ. وأكبرهم خالد (أبو نياز).

وجاء خالد. عبرت له عن مخاوفها وعن عنادي، والخطر الكامن في نشاطي:

- أنا مش قادر عليها، تفاهم معها أنت.

خالد وأنا متفاهمان وبيننا ثقة. ننشط أحياناً معاً على الرغم من أنه "فتح" وأنا "جبهة شعبية". قبل شهر، قمنا بنقل أسلحة وتخبئتها في مخابئ خاصة قام هو بتصميمها وتحديد مواقعها ثم أطلعني عليها.

جلسنا وحدنا وأخذنا نعد برنامجاً نضالياً وقررنا صيانة الأسلحة التي خبأناها معاً. عند مغادرته شدّ على يدي متمنياً لي التوفيق. رأته أمي وكانت ترقبنا من بعيد. صاحت به مستنكرة وموبخة:

- وكمان بتشد على ايدها بدل ما تكسر راسها؟

قال لها كلاماً يطمئنها لكنه لم يقنعها، واستأنفت ضغطها عليّ ومحاصرتها لي. قالت:

- راح (أهج) من عندك، وما أخليك تعرفي الأرض اللي أنا فيها.

قلت لها رداً على تهديدها وممعنة في العناد:

- لن تجدي أفضل منّا، وستعودين لنا سريعاً.

رفعت شاهديها ووجهها إلى السماء قائلة:

- إشهد يا ربي، أنا مش قادر عليها، كون في عوني يا رب.

كنت أرى في مواقفي تلك إصراراً وليس عناداً، وربما كان العناد والإصرار لهما المدلول نفسه عندي. وكان اتصافي بأي منهما مدعاة للاعتزاز بالنفس والافتخار. وفي الوقت نفسه كنت أعتز بمواقف أمي وأفتخر بها. وكنت أرى في ذلك الصراع اختباراً لصلابة مواقفي واستعدادي للمواجهة.

قدرة أمي على الاستشفاف تحيرني. أحياناً؛ أعتقد أنها تقرأ الغيب! أذكر مرة، في صباح أحد الأيام، وقبل خروجي من البيت إلى المدرسة -وكنت طالبة في الثاني ثانوي- ناولتني مصروفي اليومي، وحدقت في عيوني وتفحصت وجهي. استغربت وارتبكت، وزاد استغرابي عندما قالت:

- ديري بالك يمة من الأحزاب. في بنات بورطوك. ابعدي عن السياسة. السياسة خراب بيت.

احترت في أمري وفي أمرها. هل اكتشفت أمي سرّي؟ وكيف عرفت؟

قبل أسبوع فقط، كنت بدأت الاتصال مع حركة القوميين العرب. وأخذت أحصل على نشرة "الحرية" وهي نشرتهم السرية. وكان عليّ قراءتها في حمامات المدرسة وإعادتها في اليوم نفسه، حرصاً منهم على السرية. كان الأمر في منتهى السرية. فكيف شعرت أمي بتوجهاتي الجديدة حتى تحذرني الآن وليس قبل أو بعد؟ أربكني اكتشافها ذاك، طوال اليوم. كنت ساهمة وغير مشاركة في الصف. علّقت المعلمات أكثر من مرّة لشد انتباهي، واعتبرت زميلاتي أن سرحاني دليل على وقوعي في الحب. بينما كنت أفكر فيما قالته أمي، وما إذا كان عليّ

الانقطاع أم الاستمرار في اتصالاتي مع القوميين العرب.

سار الجيب العسكري مسافة كيلومتر تقريباً ثم توقف. كانت المجندة تبرد أظافرها وتبدو مستغرقة في ذلك. الجندي الذي يجلس قبالتي ذو وجه طويل وأنف طويل ورقبة طويلة. تصورت أن أحداً كان يشدّه من شعره باستمرار ويجره حتى طال وجهه ورقبته على تلك الشاكلة.

توقف الجيب، عند مدخل البلدة، في "الشكارة" وطال الانتظار هناك.

"ماذا ينتظرون؟" تساءلت في نفسي وقد نسيت ذهابهم إلى "عمر درويش".

ومع الانتظار، قفزت صورة أمي الأخيرة وهي تبحث عن الله في السماء. وكان صوتها يرن في سمعي. وقع نظري على سفح تل "العاصور". كان التل قبالتي يصعد عالياً نحو السماء، بينما كنا نقف عند أقدامه. تداخلت صور الماضي بالحاضر؛ رأيت نفسي طفلة، أجري خلف أمي ونتسلق طرقاً وعرة على سفح هذا التل الرابض أمامي الآن، والذي لم نعد نستطيع الاقتراب منه لتحوله إلى منطقة عسكرية منذ دخل الجيش الإسرائيلي محتلاً للضفة الغربية العام ٦٧. أمي تصعد قفزاً فوق الحجارة، وكنت أحاول الجري على وقع خطواتها واللحاق بها.

كان ذلك غداة مذبحة دير ياسين. وصلتنا أخبار مروعة عن دير ياسين. ومع تلك الأخبار، تحولت حياتنا إلى كابوس. أمي تلطم وجهها وصدرها على مصير أختها (الوحيدة) وأبنائها وزوجها. أبي يضرب كفا بكف ويتحرك باستمرار في البيت وخارجه، وخارجه وداخله. ولم نعد نستطيع الاقتراب منه أو الحديث معه لعبوس وجهه ونزقه. وحل بنا قلق عظيم.

بعد يومين وصلت أخبار من طرف دار خالتي (عيشة الشلبي، زوجة حسين زيدان) تقول إن من نجا من "دار زيدان وصل للمزرعة الشرقية". هبت أمي واقفة. قمطت رأسها بـ"خرقتها" البيضاء. وشمرت داير ثوبها وربطته حول وسطها، وأسرعت نحو "المزرعة الشرقية" مشياً على الأقدام. قفزت خلفها ولحقت بها. كنت أصرخ خوفاً من أن تتركني خلفها. كنت حافية. صرخت بي لأعود عند أخواتي، لكني ثابرت على اللحاق بها والبكاء خلفها، إلى أن قررت أخذي معها. سحبتني من يدي وأمسكت بها. ورحت أجري إلى جانبها في البداية، ثم أصبحت أجري خلفها، دون أن أجرؤ على التذمر حين تندقم أصابع أقدامي بالحجارة.

أخذنا نصعد سفح العاصور عبر طريق ضيق اختطه الناس عبر تنقلهم راجلين أو راكبين على دوابهم. كانت أمي ترفع يديها إلى السماء وتتحدث. رفعت بدوري وجهي إلى السماء لأرى الذين تتحدث أمي معهم. لكني تدعثرت وسال الدم من إصبع قدمي الكبيرة، ولم أجرؤ على البكاء واكتفيت بقبضة يدها على كفي. وبقي حب الاستطلاع يدفعني للنظر إلى أعلى، لم أر إلاّ بعض الغيوم البيضاء التي كانت تجري مسرعة. وكنت أخالها تجري نحونا، ثم ما تلبث أن تتركنا وتبتعد عنا. فهل كان الذين تكلمهم أمي يختبؤون في الغيم؟

أصيخ السمع، فلا اسمع شيئاً. وأتساءل إن كانوا يسمعونها؟ وهل يكلمونها؟ ولماذا لا أسمعهم؟ لماذا لا أرى الذين تكلمهم أمّي؟

وصلنا البيوت الأولى في قرية المزرعة الشرقية وكان الوقت عصراً. أحد تلك البيوت هو بيت دار (خالي) زهدي الشلبي. للبيت حوش. دفعت أمي بابه ودخلت. حاولت زج نفسي قبلها فربما أرى ما يروي حب استطلاعي.

داخل الحوش يعج بالنساء والأطفال. الجميع في ملابس نوم. "آمنة جمعة"، زوجة ابن خالتي "داوود" ترضع طفلاً على حضنها. حين وقع نظرها على أمي، تبادلتا البكاء والعناق. وأخذ اسم زينب يتردد على لسانهما:

- يا خالتي، زينب؟

- شو صار لزينب؟

- زينب يا خالتي.

- خبريني شو صار لزينب.

كانت أمي تهز أكتاف "آمنة" لتعرف ما جرى لزينب، وآمنة تكرر العبارة نفسها وتبكي دموعاً كثيرة دون توقف، كأنما فقدت النطق إلا من هذه الجملة. وتركتها أمي وجالت بنظرها وسألت الموجودين:

- وين زينب وشو صار فيها؟

لكن الجميع كان يبكي.

- قولوا لي؛ شو صار لزينب؟ قولوا الصحيح ؟ ماتت؟ أخذوها اليهود أسيرة؟ عملوا اليهود فيها اشي؟

بعد أن رأت سارة ومحمد - أبناء خالتي موجودين في الحوش، سألت عن (داود وأبوه).

"يامنة" أحبها كثيراً. قبل أسبوع وربما أكثر، كنت مع أمي في دير ياسين. خاطت لي فستاناً جميلاً وألبستني إياه. كنت مسحورة ببيتهم

الذي كان أجمل من بيتنا. به غرف كثيرة، بلاطه مزين برسوم بديعة، وزجاج نوافذه ملون بألوان أخذت أحلم بها. والأجمل، ذاك الدرابزين والبلكون الواسع الذي لعبت عليه "الحيز" كما نطلق نحن على هذه اللعبة بينما آخرون يسمونها "الاكس"، أما شجرة التوت الكبيرة التي تظلل جزءاً من البلكون، فقد فتنتني بكبر حجمها. وقد تسحسلت على درابزين الدرج مع صغار آخرين. ها هم الآن، مرعوبون وخائفون، يبكون في حضون أمهاتهم اللواتي ضممنهم كما لو أنهن لا يردن إفلاتهم أبدا. وها هي "يامنة" لا تنظر إليّ ولا تحدثني ولا تدللني كما فعلت في بيتهم. فما الذي يجري؟ فتحت كل حواسي لأعرف ما وراء كل هذه التغيرات. كانت التفاصيل والقصص مرعبة ومحزنة، حفرت أخاديد عميقة في نفسي، وبخاصة قصة زينب التي سببت فجيعة لأمي كما أسبب أنا الآن فجيعة لها.

زينب في الخامسة عشرة من عمرها. كانت أمي تخطط لخطبتها لأخي الذي يكبرها في العمر بعض سنوات. زينب تنهض في الصباح الباكر، بعد صلاة الفجر، تحمل العجين وتذهب لخبيزه في فرن البلدة، لتعود قبل الإفطار بخبزها الطازج. لم يسمعوا أذان الصباح في ذلك اليوم. فعصابات "شتيرن" كانت قد قتلت المؤذن قبل أن يبدأ بالآذان.

كانت زينب ثاني من دخل الفرن. سبقتها امرأة حامل في شهرها السادس. كان الفران قد أعد النار وجهز الفرن وأدخل الأرغفة الأولى لبيت النار. انتشرت رائحة الخبز مع دخول مجندين إلى الفرن. ذبحوا الفران. والمرأة الحامل. واستطاعت زينب أن تختبئ خلف الحطب ترتجف خوفاً. ثم، شعرت بسائل دافئ يسري تحتها ويرنخ ثيابها، وفي اللحظة التي أدركت أنه دم، هربت روحها، غابت عن الوعي،

وبقي جسدها هناك مدفوناً بالحطب غير مدرك لما يجري حوله. أكد بعض الناس أنهم مرّوا على الفرن للبحث عن أحياء، فلم يجدوا إلا الجثث. ونادوا على اسم زينب في حال اختبائها ولكن ما من مجيب. لم يجدوا زينب المختبئة والغائبة عن الوعي، اعتقدوا أنها أسيرة. وعند البحث عن اسمها بين قوائم الأسرى، لم يكن بينها. وتحول الإحساس بالمأساة العامة إلى مأساة خاصة بامتياز. بدأت الظنون التي تغذّت من الخوف البالغ حدوده القصوى على مصير فتاة جميلة في الخامسة عشرة من عمرها، تنهش كينونة الأهل. تسلل أخوها داوود وكان يعمل مدرساً في المزرعة الشرقية، إلى القرية ليلاً بعد يومين. بحث عن زينب في أدق المخابئ التي يحتمل أن تتواجد فيها. دخل المخبز. سمع أنينا. كان أنين زينب، ولم تكن قادرة على النطق. حملها ونقلها إلى مستشفى في القدس.

توالى سرد القصص. وكان الجميع ينتحب. وأذنيّ تنفتح على أقصى إمكاناتها، وأدخل كل كلمة وكل قصة إلى بئر عميق في قلبي وذاكرتي. لقد استقرت هناك، في المكان القصي حيث تنبع منه كل التوجهات والأحلام.

قصة "مريم الطبجي" مثلاً؛ وقد حفظت الاسم لاعتقادي أن له علاقة بالطبيخ! رويت القصة على أن اليهود ذبحوا زوجها أمامها. وكان طفلها الصغير على حضنها، وحين أرادوا ذبح طفلها أخذت تبوس أقدامهم من أجل ألا يمسوا الطفل بسوء، لكنهم أخذوا يساومونها، فقدمت لهم كل ما لديها من ذهب وأموال ليبقوا على طفلها. أخذوا كل شيء وتركوها مع طفلها وزوجها القتيل.

كنت في حينها مجرد ابنة أربع سنوات.

انتقل نظري من على سفح تل العاصور إلى الجهة المقابلة. كان جنود كثر يعبرون "جورة الهشة". تساءلت في نفسي عما يفعلونه هناك. لكني لم أتوقع أنهم كانوا قد ذهبوا وأحضروا ما خبأناه من أسلحة في الكرم العتيق قبل حوالي الشهر.

وصل الجنود. وضعوا ما حملوه على ظهورهم من حقائب على أرضية السيارة أمام قدمي. تركزت نظرات كل العيون على تعابير وجهي. بذلت جهداً عظيماً لأبقي صفحة وجهي هادئة رغم المفاجأة الصادمة لي.

طرح الغريب سؤالاً:

- هل تعرفين هذه الأشياء؟

هززت رأسي نفياً، وحافظت على صفحة وجهي هادئة.

سكت ولم يطرح سؤالاً آخر.

استأنف دماغي طرح تساؤلاته:

من دلهم؟!

من المسؤول؟!

هل يكون "علي"؟ ولكنه ليس معهم؟

أيمكن أن يكون عمر؟ ولكنهم لم يحققوا معه بعد!.

وخالد لم يلقوا القبض عليه؟

من إذن، ولا أحد يعرف عن المخبأ إلا أربعتنا؟!

أيعقل أن يكون "علي"، ولم يصمد أربعاً وعشرين ساعة؟

اصمدي يا عائشة. كوني نموذجاً للصمود. فليس الرجال أكثر صموداً من النساء!

في نهاية السنة الدراسية للصف الرابع الابتدائي، استلمت شهادتي. كانت مفاجأة لي. كنت قد حصلت على علامة كاملة في معظم المواد. طرت فرحاً. وددت لو كانت لي أجنحة أطير بها وأجوب القرية، أنشر علاماتي على كل الناس وأفخر بها. أرفرف فوق البحار فأقطعها وأصل أخي لأطلعه عليها. لم تعد القرية تسعني. حملت شهادتي ولم تعد أقدامي تلامس الأرض. وصلت البيت وبشّرت أمي ورحت أقرؤها لها. ربتت على كتفي ودعت لي بالرضى والتوفيق. ولكن ذلك لم يكن كافياً. أخذت أرقب الطريق لعل عمي يجيء. وأقبل كعادته، يضع عباءته على كتفه. رأيته منذ أن أطل من عند علالي دار عمار. لم أنتظر وطرت أستقبله وأبشره. وما إن جلس، حتى أحضرت الشهادة. سُرّ كثيرا وربت على ظهري وقال:

- بس يا خسارة إنك بنت.

صدمتُ، وقد مادت الأرض تحت أقدامي. جن جنوني. أنا التي كنت حتى اللحظات أعتقد أنني الأشطر في القرية كلها، أفاجأ أن لا قيمة لاجتهادي؟!

لا!

قلتها رفضاً لذاك المنطق، وتصديت له. وصرت أدافع عن وجودي بمنطق الطفلة التي كنتها:

- ليش الولد أحسن مني؟ طيب خلي ابنك عبد المجيد (وكان من عمري) وابنك أحمد (وكان اكبر مني بثلاث سنين) أو أي ولد من أولاد العائلة، لأشوف مين فيهم بقرأ أفضل مني؟ جيب القرآن، تنشوف مين بقرأ قرآن أفضل؟ وإلا من فيهم بحل مسائل حسابية أسرع مني؟ أو بعرف في الجغرافية والتاريخ أحسن؟!

كنت واثقة من تفوقي، وأمدني ذلك برغبة التحدي.

سمع عمي مرافعتي تلك. كان يبتسم ويحتويني بنظرة حب وحنان جعلتني أعتقد أن حججي قد أقنعته، وأنه سيتراجع عما قاله قبل قليل. لكنه ربت على كتفي قائلاً:

- كل اللي قلتيه صحيح، أنت أشطر منهم جميعاً، بس يا عمي بتظلي بنت.

شرختني جملته الأخيرة، وشعرت أني دخلت في تيه أود الخروج منه. فقلت:

- شو يعني؟! بس ما فيش فرق بين البنت والولد.

ردّ موضحا فكرته: يعني بنظل متغلبين في البنت. لو نفرض أنك تأخرت في الليل! بننجن ولا نستطيع النوم قبل أن تعودي. بس لو تأخر عبد المجيد ما بنخاف عليه؟

لم أستسلم ورفضت منطقه:

- بس عبد المجيد مش أشجع مني، هو بخاف من الليل أكثر مني.

وجد نفسه متورطاً معي فأكمل دفاعه عن معتقده: يعني يا عمي، نفرض أنك أكملت تعليمك وتوظفت بعيداً عن البلد، لا نستطيع تركك تسكنين لوحدك، لازم حد من أهلك يسكن معك. بس الولد بسكن لوحده وما بنتغلب فيه وما بنخاف عليه.

لم أستوعب. فلماذا يسمح للولد بالسكن وحده ولا يسمح لي؟ ولماذا يخافون على البنت ولا يخافون على الولد؟ لماذا هذا القدر؟ والولد لا يتحمل المسوؤلية أفضل مني؟ أعرف أبناء عمي وأولاد الحارة؛ وأعرف كيف يهملون مسؤولياتهم على العكس مني. كانوا يتركون (شاتهم) تأكل الشجر، كنت أنا التي تنبههم لتقصيرهم بمسؤولياتهم! فلماذا إذن يعتمد عليهم بالسكن وحدهم ولا يعتمد عليّ؟! هل علي أن أتحول إلى ولد لأحصل على ثقة أهلي؟ وكيف السبيل إلى ذلك؟

لكن التحول إلى ولد غير ممكن! ربما عليّ السهر ليلة القدر لأطلب ذلك من الله.

منذ ذلك الحين، سكنني رفض مطلق لمنطق التمييز ذاك. وتحول الرفض إلى معركة دائمة أديرها بصمت وبشكل تلقائي بيني وبين المنطق الذي يجعلني أقل قيمة وأكثر عبئاً من الولد أو الرجل لكوني فتاة. وبحثت دائما عن التفوق لأثبت أنني لست أقل من الولد، ورغبت في خوض الحياة والتجارب التي يخوضها الولد ثم الرجل نتيجة إصراري على رفض الدونية التي يلبسني إياها المجتمع.

وها أنا أدخل في كبرى المعارك التي يدخل إليها الرجال، وها أنا وإياهم أمام الاختبارات نفسها، وعليّ التفوق في الاختبار.

وصلت باقي سيارات الجيش التي شاركت في اعتقال "عمر درويش"، صعد الجنود فيها، وتحرك الجميع إلى رام الله.

طوال الطريق إلى رام الله ساد الصمت، وعيون الغريب مسلطة عليّ كأنها كشافات تلتقط أدق الخلجات التي قد تبدو على وجهي أو تصدر عني. اجتهدت للحفاظ على هدوئي رغم ما تمور به كينونتي من حركة وانفعال. غابت أمي وكذا الماضي عن تفكيري، وانصب على الحاضر والمستقبل ورابطهما الصمود. لا شيء غير الصمود يا عائشة مهما كانت التفاصيل. لم أفكر بلحظة ضعف، لا بالنسبة لي ولا بالنسبة لغيري. لم أفكر بالعنف أو التعذيب الذي سأواجهه، بل كنت أضع يافطة أمام عيوني ومخيلتي اسمها الصمود والتحمل ليس إلا. كنت أردد في نفسي كل المقولات والشعارات التي تؤكد على الصمود، وسأخرج منتصرة في هذه المعركة. "سأصمد وأواجه كل الاحتمالات". كنت أكررها في نفسي كلازمة. وقد استحضرت المناقشات التي كانت تدور مع الرفيقات، وبخاصة مع "رشيدة عبيدو" حول مواجهة ما قد ينتظرنا:

- ماذا لو انفجرت العبوات بنا قبل وضعها في المكان المحدد؟

- ماذا لو تم اكتشاف الأمر أثناء نقلها قبل الوصول إلى الهدف؟

- ماذا لو فقدت الواحدة منا يدها أو عينها أو رجلها أو.....؟

ووصلنا إلى رؤية وقناعة: أن كل الاحتمالات قائمة ونحن معرضات لها، دون أن نناضل وحتى دون أن يكون لنا موقف أو دور. فجنود الاحتلال ينتشرون في كل مكان فوق أرضنا، يتحكمون في كل أمورنا، فما الذي يمنعهم من دخول أي بيت ليصنعوا ما يشاءون؟ أو يطلقون النار هكذا ويقتلون ويجرحون؟

وصلنا إلى قناعة. كانت مسؤولة عن مواقفنا وخياراتنا، وكانت تلك القناعة:

"إن الاحتلال هو الشر المطلق وما دون ذلك فهو شر جزئي".

وصلنا أمام سجن رام الله الذي أصبح بعد الاحتلال مقراً لقيادة الحكم العسكري، وتم تبديل الجنود.

نزلت المجندة والغريب. تم تبديل المسؤول والسائق. قفز إلى الجيب شخص بلباس مدني لمعت صلعته الواسعة أثناء قفزه إلى السيارة. بدا لي قصير القامة قليلاً. حليق الذقن والشوارب. وقبل أن يجلس، نخع بصقة كبيرة على وجهي اتبعها بصفعة ومسبة بذيئة.

- بشوفك يا شرموطة مش مهتمة؟

تحفزت قواي الداخلية. فقد بدأت المعركة.

لم أنطق، ومددت يدي أمسح البصقة عن وجهي وأنا أقول لنفسي؛ "تماسكي يا عائشة، لا بد من الصمود".

جلس مكان الغريب. وضع مرفقيه على ركبتيه وحنى جذعه إلى الأمام متفرساً بعيونه وجهي كأنما يريد اقتحام تلافيف دماغي. صعد جنديان آخران وجلسا متقابلين، أحدهما إلى جانبي. تحركت السيارات متجهة نحو القدس. طوال الطريق، تعرضت للصفع والركل والبصق، وكل الكلمات البذيئة من الرجل الأصلع قبالتي. وكان يهدد:

راح أشلّك، راح أخلع عيونك، راح أشوّه وجهك، وأخلّيك مثل القرد.

لكنه لم يشر بأية كلمة عن سبب الاعتقال، وكنت أود لو أعرف، فذلك يساعدني في ترتيب أفكاري.

لم أنطق بكلمة. فلم يكن مطلوباً مني قول شيء. ولكني بقيت أشحن إرادتي: "صبراً صبراً يا عائشة. اصمدي يا عائشة. تحملي".

وصلنا القدس، وصلنا المسكوبية. دخلت السيارات ساحتها الداخلية. تقافز الجنود من السيارات العسكرية بسرعة. دُفشْتُ من قبل الأصلع. أحاطني بعض الرجال بلباس مدني وبعضهم جنود. ساروا بي نحو مدخل عمارة من طبقات عدة. عرفتها فيما بعد بعمارة التحقيق.

التحقيق

بدأنا صعود درج حادّ الميلان. الأصلع في المقدمة وكنت خلفه، بينما تدافع الجميع خلفي. مجموعة أخرى كانت تهبط الدرج. توقفت المجموعتان في لحظة تقابلهما. "بشير الخيري" كان وسط المجموعة الهابطة مقيد اليدين وقد نبت شعر ذقنه كأعشاب أرض بور أعطته طابع المشردين ونزلاء الزنازين المحكومين بالإعدام، عيناه حمراوان وقد ذبلتا كما لو أنه لم يذق النوم منذ زمن طويل. منظره حرّك مشاعر تعاطف معه وقد امتلأتُ غضباً على المحققين.

سأل الذي يتقدمني وهو يشير إلى بشير:

- هل تعرفينه؟

نظرت في عيني بشير فأومأ بالإيجاب. قلت:

- نعم.

- وماذا تعرفين عنه؟

- إنه محام معروف.

- وأنتِ، كيف عرفته؟

- عندما صادرتم سيارتنا الخصوصي، توجهت إليه كمحام لرفع قضية لاستعادتها.

- وماذا أجاب؟

- قال إنه لا يستطيع.

- ولماذا لا يستطيع؟

- لم أسأله.

- ولماذا لم تسأليه؟

- اكتفيت بالإجابة.

- وماذا غير ذلك؟

- لا شيء.

*****

سألتني مؤنبة وهي تحمل مكنسة في يدها:

- هل تستطيع الكف مواجهة المخرز؟

أجبتها:

- نعم تستطيع .

تابعت أسئلتها بتحدٍ :

- كيف؟

قلت :

نصفِّح الكف بالحديد!

أطلت ابتسامة حب وحنان من عيونها وغمرتني بهما لكنها صفعتني بمكنستها على مؤخرتي وصرخت بي كي أغرب من وجهها .

كنت قد انتميت لحركة القوميين العرب ، وقد شكلت أول خلية من بنات صفي في الثاني ثانوي ؛ (روضة الفرخ ، وشريفة حمودة ، ومحاسن الترتير ، وسلافة البرغوثي ، وأنا) وكانت "لطفية الحواري" مسؤولتنا . كنا نجتمع أسبوعياً في بيت لطفية ، نناقش كتباً قومية وأنشطتنا في المدرسة والمجتمع . اكتشفت أم لطفية الهدف من وراء اجتماعاتنا فأعلنت حربها علينا وطردتنا من الاجتماع . لم تكن لطفية لتستسلم . أشارت إلينا كي نسبقها إلى بيت أخيها القريب الذي لم يكن مسكوناً بعد . أحضرت مفتاح بيت الدرج وصعدنا إلى السطوح لنكمل اجتماعنا . اكتشفتنا أمها من جديد ولحقتنا حاملة مكنستها وكانت توبخنا بصوتها الهادر . ارتبكنا وبدأنا نفتش عن طريق للهرب أو الاختباء . ولكن كيف وأين؟ قرّرتُ المواجهة : هبطتُ الدرج . تقابلتُ وإياها عند بدايته ، فصرخت في وجهي مؤنبة :

- ألم أحذركن! إنكن تلعبن في النار!

قلت لها :

- ولكن يا خالتي كيف لنا أن نغير واقعنا .

- هذه دولة لا ترحم، وطريق السياسة طريق هلاك ويمكن أن تخربن بيوت أهاليكن .

- إذا خفنا وخاف غيرنا فمن سيغير؟

- وهل تستطيع الكف مواجهة المخرز؟

- . . . . . .

* * * * *

ها أنا الكف التي تواجه المخرز .

كنت قد قررت استراتيجية المواجهة في التحقيق، التي تعتمد على جعل الأمور منطقية، هل كنت موفقة؟ أم كان من الأفضل اعتماد استراتيجية الإنكار المطلق مثلاً؟ ولكن، أليس الإنسان في النهاية يعتمد استراتيجية تتلاءم مع بنائه العقلي والنفسي، وليس بالضرورة أن يكون مدركاً وواعياً لها؟

تنحت المجموعة الثانية جانباً لنستمر في الصعود، وكان الذي يتقدمني يسرع في خطاه كمسافر يخشى أن يفوته القطار .

دخلنا الطابق الثاني . كان له ممر طويل لا يتجاوز عرضه مترين . دخلنا المدخل الأول على اليسار . غرفة واسعة ومكتب فخم على يسار المدخل . مخمل أخضر افترش سطح طاولة المكتب . رجل أشقر، حليق الذقن

والشوارب جلس خلف طاولة المكتب على كرسي جلدي أسود، ارتفع مسنده الخلفي إلى مستوى الرأس (سأطلق عليه اسم المسؤول). عدد من الرجال كانوا يقفون حول طاولة المكتب وفي الغرفة.

- أهلا بالبطلة!

نطقها الواقف على يسار المسؤول بطريقة استهزائية وقد اكتظت الغرفة بالرجال.

مشاعر مختلفة ومختلطة، تدفقت وانجدلت معاً وشكلت لوناً خاصاً من الإحساس بالصمود والتحدي الممزوج بالرهبة، يمكن تلخيصه بالتالي:

"وحدي أنا بينهم، وأنا ند لهم"

إحساس ملأني بمسؤولية حملي لقضية شعبي.

"نعم، وحدي أنا الآن، وحدي أحمل المسؤولية"

"لقد تعرفت على بشير" قال الأصلع.

أشار (المسؤول) بيده لأجلس على كرسي كان إلى جانب المكتب الفخم.

سألني (المسؤول) من جديد:

- هل تعرفينه؟

- ومن لا يعرفه؟ إنه محام مشهور!

- وأنت كيف عرفته؟

- عندما صادرتم سيارتنا الخصوصية، ذهبت لأستشيره إن كان بإمكانه رفع قضية لاستعادتها.

- وماذا كان جوابه؟

- قال إنه لا يستطيع.

- ولماذا لا يستطيع؟

- لم أسأله واكتفيت بإجابته.

- وكم مرة زرته في مكتبه؟

- مرة واحدة فقط.

انتبهت لإجابتي أنها لم تكن محكمة تماماً، لو سألوني عن موقع مكتبه فلن أعرف، وينكشف أنها من صنع الخيال رغم صحة تفاصيلها، أعني مصادرة السيارة وكونه محامياً.

أكمل أسئلته:

- منذ متى وأنت عضو في الجبهة الشعبية؟

- لست عضواً في الجبهة الشعبية؟

- في فتح؟

- ولا في أي تنظيم.

بصق أحدهم في وجهي قائلاً:

– يا شرموطة، منذ متى وأنت في منظمة الجبهة الشعبية؟

– لست في الجبهة الشعبية ولا في أي تنظيم.

سأل آخر بعد أن اقترب مني:

– باسم من وضعت القنبلة في السوبر سول؟

(تنبهت أن الاعتقال لا شك أنه على قاعدة عملية السوبر سول، ولكني كنت مصممة على الإنكار، فلا يمكن أن يتأكدوا ما لم أقل لهم نعم). قلت بحسم:

– لم أضع أية قنبلة في أي مكان.

صفعة قوية لفحت وجهي. فصرخت:

– لماذا الضرب؟

– لأنك شرموطة.

– لست كذلك.

– وماذا إذن؟ قولي لنا كم واحد نمت معه؟

– لم أنم مع أحد. ثم هذا ليس من شأنكم.

– ولكن عندما تضعين القنابل وتنظمين غيرك لوضع القنابل، أليس هذا من شأننا؟

أخذ يصفعني صفعات متواصلة. لم أتوجع. إحساسي بالندية وامتلاك الحق، أمدّاني بقوة للتحدي والصمود.

تنبه أحدهم إلى شعري المربوط على هيئة ذنب فرس. أمسك به، طوح بي عاليا في الهواء ورماني على الأرض. أقدام كثيرة بدأت تركلني. من جديد سحبني من شعري ورفعني عالياً وخبطني في الأرض لتركلني الأقدام من جديد، كأنما يمارسون لعبة. تكرر ذلك ثلاث أو أربع مرات.

لا أذكر أني كنت أتألم، ولكني كنت أشحن إرادة الصمود والتحدي مع كل صفعة أو ركلة مكررة في نفسي: "هذا ثمن المواجهة، هذا ثمن المواجهة".

قال أحدهم:

- حتى أنها لا تصرخ هذه الشرموطة!

لم أكن أصرخ؟

أمدني التعليق بإحساس بالكبرياء أمام عنجهيتهم.

"إنهم لا يستحقون أن أصرخ أمامهم، وإنك تتفوقين عليهم يا عائشة".

الإحساس بالتفوق عليهم ضخم إحساسي بذاتي. توحدتُ تماماً بقضية شعبي.

سحب أحدهم كرسياً من جانب المكتب ووضعه مقابلاً للمسؤول. أمسكني من كتفي وبحركة عنيفة أجلسني عليه. طاولة المكتب الضخمة بسطحها المخملي وزجاجها الغامق تنفرش أمامي. (المسؤول) يسند ظهره إلى الكرسي الجلدي ويتحرك يمنة ويسرة، شابكاً يديه على صدره. توقف عن

حركته، انحنى إلى الأمام واضعاً ساعديه فوق سطح المكتب. قذفني بنظرات تهديد ووعيد، نظراته وتهديداته لم تلامس روحي، بل رددتها ككرة. عاد إلى الخلف قليلاً، سحب جارواً بيسراه وأخرج أنبوبتين معدنيتين، يتراوح طول الواحدة منهما بين ٣٠ إلى ٤٠ سم وقطرها ٣ سم تقريبا. وضع إحداهما على سطح المكتب وأمسك بالثانية بيده اليمنى وراح يربت بها على كف يده اليسرى وقد أعاد إسناد ظهره إلى الكرسي. دار مع الكرسي شمالاً ويميناً، ثم ثبت نفسه بمرفقيه على حافة الطاولة. ركز نظره في عيوني من جديد وأخذ ينقلهما بالتناوب بين (الأنبوبتين) وعيوني. وأخيراً قال:

- لا حاجة لإنكارك. الأفراد الذين نسألك عنهم موجودون عندنا، وهم الذين اعترفوا عليك.

- ليس لي علاقة بأحد.

- هل تفسرين كيف وصلنا إليك؟

- لا شأن لي بذلك.

- لا حاجة لان تعذبي نفسك، خير لك أن تضعي كل ما لديك على هذه الطاولة.

- ليس لدي شيء لأضعه على الطاولة.

- ذنبك على جنبك.

ناول الأنبوبتين للواقف خلفي. بدأ يضربني بهما على رأسي كما يفعل قارع الطبل. رفعت يدي لأحمي رأسي، فضربني فوقهما.

قال (المسؤول):

- احضروا لها أحدهم كي تقتنع.

توقف الضرب، وما هي إلا لحظات حتى كانوا يدفعون بـ"بشير" ويصرخون به:

- قل لها يا ابن القحبة.

حرك شفاهه قائلا: "أنا لم..."

لم يمهلوه ليكمل جملته. أخذوا يصفعونه أمامي ثم دفعوه خارجاً مع سيل من المسبات والإهانات.

لأول مرّة أشهد رجلاً يضرب دون أن يكون بمقدوره الدفاع عن نفسه. وبشير لم يكن أي رجل، كان رفيقاً ومسؤولاً يحظى باحترام شديد لدماثة خلقه.

تفجر غضب بداخلي، وددت لو أصفعهم جميعاً وأصرخ في وجوههم (مجرمون ونازيون).

قال (المسؤول):

- أرأيت؟.. كيف اعترف عليك؟

قلت في نفسي "ما أوقحهم، يكذبون علناً ويطلبون تصديقهم".

قلت:

- كذب.

شحنات غضبي خرجت مع كلمتي التي رافقتها خبطة من قبضتي على سطح المكتب، كسرت زجاجه.

صفعة قوية لطمتني على وجهي، طيرتني من على الكرسي وخبطت رأسي بالحائط المجاور.

- أنحن نكذب يا شرموطة؟

(في المحكمة العسكرية أنكروا كل أشكال الضرب والتعذيب واعترفوا بهذه الصفعة فقط، قائلين إن الهدف كان منها تهدئتي من الانفعال الشديد الذي أدى إلى كسر الزجاج، وطالبوا بتغريمي ثمن الزجاج).

نفست الصفعة انفعالي. هدأتُ كما الطبيعة بعد عاصفة ماطرة.

تقدم آخر ورشق وجهي ببصقة كبيرة. حاولت مسح وجهي وتحفزت من جديد. أمسك بيديّ وشدهما خلف الكرسي وقيدهما، وألحق ضربة بقبضته على مؤخرة رأسي كادت تفقدني توازني.

- تتحدى الشرموطة؟!

قالها مستنكراً وتناول الأنبوبتين الحديديتين من جديد، وأخذ يطرق بهما على رأسي بقوة محسوبة، عدة طرقات ثم يتوقف ثم يطرق من جديد ويتوقف، وهكذا دواليك.

أخيرا، وضع الأنبوبتين جانباً.

لحظات..

وإذا بدوي هائل ينفجر في رأسي.

تحوّل عالمي إلى دويّ سديمي.

كل شيء آل إلى هباء. . . .

حصل ذلك من خبطة شديدة القوة بالكفين في اتجاهين متصادمين على أذنيّ.

أخذ السديم يتحول إلى ضجيج. كل شيء حولي ضجيج. عناصر الكون ومفرداته ضجيج. والضجيج مسكنه رأسي!

أخذ الضجيج يخفت. وإذا بخبطة ثانية تعيد كل شيء إلى لحظة الانفجار السديمي.

كلما خفّ الضجيج جاءت الخبطة التالية.

توالت الخبطات بانتظام كبندول ساعة.

هل انتهى عالمي إلى ضجيج؟ هل يسكنني إلى الأبد؟ هل فقدت السمع؟

كنت مثل محاصر بفياضانات جارفة أو عواصف شديدة ليس لديه إلاّ انتظار فرج الله.

وأخيراً. . . !

توقف الخبط على أذنيّ. فك القيد من يديّ، حركتهما تلقائياً أتحسس أذني ورأسي فيما إذا بقي شيء على حاله أو في مكانه! فربما تغير شكل رأسي، كأن يصبح أكثر طولاً أو أذنيّ التصقتا أو عُجنتا برأسي؟!

هل حصل التغّير في وظيفتهما؟! هل سأعود وأسمع كما كنت؟

(في الواقع لم يعد) أم أن الضجيج سكنني إلى الأبد؟

تركت فترة من الزمن.

أخذ الضجيج يخفت شيئاً فشيئاً وتحوّل إلى تشويش يسكن رأسي.

خرج الجميع من المكتب ما عدا اثنين. أرى شفاههما تتحرّك ولا يصلني صوتهما. هل فقدت السمع؟

خرج أحدهما وعاد بعد دقائق. تقدما مني وأمسكا بذراعي ودفعاني خارج المكتب صعوداً على الدرج إلى طابقين أعلى.

في ممر طويل، ومن على جهته اليمنى، عدد من الشباب يتجاوز العشرة، وجوههم إلى الحائط وأيديهم مرفوعة إلى الأعلى، كأنهم معلقون في الهواء! تخطينا الشاب الأول ثم الثاني وتوقفوا عند الثالث، شدّه أحدهما من كتفه وأدار وجهه بينما الأول يقبض على ساعدي ويهزّني أمام الشاب سائلا إيّاه:

- أهذه هي؟...

- نعم.....

قالها وأحنى رأسه إلى الأسفل منكسراً. خفض عينيه كأنما ينظر إلى هاوية لا قرار لها ويهوي فيها. شعرت أني تلقيت صفعة أقسى من كل الصفعات والركلات والخبطات التي انهالت عليّ قبل ذلك.

- هل تعرفينه؟...

- لا.

أعاداني إلى الطابق السابق، إلى غرفة مجاورة للغرفة السابقة. حضر جندي مسلح ووقف على الباب وخرج الاثنان وبقيت وحدي.

نسيت الضجيج والدويّ في رأسي وسيطرت عليّ صورة انكسار الرفيق التي بدت لي كأحجية. متى اعتقل؟ كيف تحوّل إلى كومة من ركام، وانحنى ظهره ككهل، وشاخ عشرات السنين؟. هل يعقل أن يحصل كل هذا التغّير للإنسان خلال عدد من الأيام وربما عدد من الساعات؟ كأنه ليس ذاك الشاب الذي لفتت فتوته ووسامته نظري أول مرة التقيته.

التقيته في عمان في منزل (محمد ربيع) أحد قياديي الجبهة الشعبية في حينه. قبل عودتي بليلة اقترح أخي السهر لدى صديق معروف لكلينا (أبو ربيع). وجدته هناك. صافحه أخي بحرارة سائلاً إيّاه عن أخباره. تصرف في السهرة كأحد أفراد الأسرة حتى اعتقدت أنه من أبناء أبي ربيع.

تفاجأت بوجوده في الضفة الغربية في بيت رسمية يجهّز العبوات. كتمت معرفتي به وتجاهلته تماماً وتصرّف هو بالمثل. لكني فرحت للمفاجئة على الرغم من الخوف الأمني من معرفته اسمي. أخذت رسمية جانباً وسألتها: لماذا هو وليس نحن؟ ألم نتدرب على ذلك؟ قالت إنه خبير متفجرات، وهذا أضمن لنا جميعاً. عرفت أن لرسمية اتصالات أهم من تلك التي أعرفها. لكن صفة الخبير جعلتني أنظر إليه باحترام وتقدير عاليين. "إذن بالإضافة لوسامته، هو فدائي وخبير" قلت ذلك في نفسي!

تناوبت صوره المتناقضة أمامي. صورة انكساره صارت تغطي كامل المساحة أمام ناظري. أغضب وأثور، فأمزقها. "كيف له أن يعترف؟".

أرق قليلاً وأبحث له عن أعذار؛ "لا شك أنهم عذبوه كثيرا" . أعود وأثور وأرفض الأعذار؛ "كيف للرجال إلاّ أن تصمد؟! كيف يقبل لنفسه الانكسار؟! . كيف تجرأ أن يبدو أمامي معترفاً وضعيفاً؟ أين أنت يا عمي الحبيب؟ كنت تؤمن بتفوق الرجال على النساء، لو كنت حياً لوضعت أمامك حقائق تعمل على تغيير رأيك: الرجال لا يتفوقون على النساء، ولا يعتمد عليهم أكثر. اصمدي يا عائشة، وعلى العالم أن يقتنع أن الرجال ليسوا أفضل من النساء. على العالم أن يغيّر رأيه في النساء والرجال" .

ما زلت غارقة في تلك الحوارات مع نفسي حين دخل رجل فاره الطول ويحمل في يده كرباجاً. يلبس بلوزة صفراء، عيونه سوداء مدمولة الجفون ونظرته حادة كمخلب جارح. وقف أمامي، غرز نظراته الحادة في عينيّ. لوح بالكرباج وقال:

- عايزة تكوني أجدع من الرجال؟

أعجبتني صيغة السؤال، قلت في نفسي "عايزة أكون أجدع من الرجال" .

- ألا تعرفينه؟ الم تشاهديه يجهز المتفجرات؟

لوّح بالكرباج وخبطني على ساقي وأردف قائلا:

- سنعرف إلى متى ستصمدين؟

قالها مهدداً، وحرك الكرباج إلى الأعلى وتوقعت أنه سيهوي به على رأسي ويشقه نصفين، لكنه هوى به على الطاولة. هدد كثيراً ثم خرج

دون أن ينفذ شيئاً من تهديداته التي لم تكن لتدخل أذني ولم يكن دماغي الذي انشغل برفض الانكسار يسمح لتلك التهديدات بالنفاذ إليه. إثر خروجه دخل اثنان؛ أحدهما طويل القامة، ممتلئ، له شاربان أسودان وكثيفان، في يده كرباج كان يلوح به كأنه في استعراض، والثاني طويل ونحيف ويمسك في يده سيجارة. (الوحيد الذي رأيته يدخن في التحقيق). غب نفساً عميقاً ونفث كامل الدخان في وجهي. بدأت أسعل. فسأل:

- ألا تدخنين يا. . . ؟

لم أجبه وواصلت السعال. فأكمل سؤاله:

- أيزعجك الدخان؟

لم أجبه. فلكزني في رأسي قائلاً:

- بسألك، بتجاوبي، مفهوم؟ (مع لكزة ثانية) وأعاد السؤال: هل تتضايقين من الدخان؟

احترت في الإجابة. فما شأنهم بهذا؟ وأهداني تفكيري بجواب غير حازم. فقلت:

- أحياناً.

لوح الآخر بالكرباج ثم خبطه بالطاولة صارخاً:

- يا شرموطة تريدين أن تكوني أجدع من الرجال؟ سنرى كم ستصمدين؟

لوح بالكرباج عالياً وخبطه على كتفي ملتفاً على ظهري، خرج الألم ناراً من رأسي.

قال:

- هذه تحماية فقط يا بنت القحبة.

انطلق لسانه بالمسبات. لم يترك كلمة بذيئة تعتب عليه، ووقف الآخر كمتفرّج، يرسم على وجهه ابتسامة استهزاء ويواصل نفث دخان سيجارته في اتجاهي. بعد انتهائه من التدخين، تقدم مني وجعل وجهه مقابل وجهي مركزاً نظره في عيوني وألقى سؤالاً كمن يلقي قنبلة:

- كم واحداً نمت معه يا. . . ؟

- ولا واحد. أجبته بحسم.

- يعني بدك تقنعيني انك ما . . . . (كلمة وقحة) ولا مرة؟

استفزتني كلمته الوقحة هذه المرة. كظمت غيظي وقررت ألا أستجيب لاستفزازاتهم. استمر في استعراض ما لديه من كلام وقح وبذيء، ملقياً كل الاتهامات الأخلاقية التي شاء خياله أن ينسجها.

خرج حامل الكرباج وجاء آخر، سأل فور دخوله:

- ألم تتكلم بعد؟

- هذه واحدة قحبة.

- طيب بنشوف إلى متى ستصمد.

رد عليه القادم الجديد وتقدم مني وأمسك بشعري وشد رأسي إلى الخلف. أخذ يصفعني بشكل متواصل، مكرراً جملته الوحيدة "ألا تريدين أن تتكلمي؟"

صورة انكسار الرفيق كانت ماثلة أمامي تحذرني من الوصول لمثل ما وصل إليه. "إياك أن تنكسري يا عائشة، اصمدي يا عائشة فالصمود ممكن" كنت أحدث نفسي بينما أتلقّى الصفعات على وجهي.

هل تعب الذي كان يصفعني؟

تركني وتحادث مع زميله بلغتهم. إثر ذلك اقتاداني خارج المكتب وخارج المبنى. كان الوقت مساء والأنوار مضاءة. لفحتني ريح باردة. هل تغيّر الطقس بهذه السرعة؟ أشعل الهواء البارد وجهي ناراً واقشعر جسدي برداً. كانت ساحة داخلية لمباني التحقيق، فيها مجموعة متفرقة من الأبنية الجاهزة نطلق عليها اسم (بركسات)، دخلنا إحداها. وجدت أمامي "رسمية عودة" تجلس على كرسي خلف طاولة. بدت لي متماسكة. نظرت في عيونها علني استشف شيئاً، فلم تصدر عنها أية إشارة.

سألاني:

– هل تعرفينها؟

– نعم.

– وماذا تعرفين عنها؟

– كانت في فريق رياضة مدرستها الذي كنا نتبارى معه.

- وماذا أيضاً؟

- لا شيء.

- ألا تزورينها في البيت؟

- لا.

خرجا وسارا بي إلى بركس آخر، لم يكن به أحد. ألصقاني بالحائط وجعلا وجهي صوبه. أمراني برفع ذراعيّ إلى الأعلى والبقاء هكذا، محذرين من مغبة تغيير وضعي. تركاني وغابا مع صوت خطواتهما.

تنفست الصعداء وقلت في نفسي "ارتحت من وجوههم ومن الضرب والشتائم".

أدرت وجهي قليلاً كي أكتشف المكان. كان جندي مسلح يقف بالباب. صرخ كي أدير وجهي للحائط فأعدته.

مرّ زمن من الصعب تقديره، فالزمن في مثل ذلك الوضع ثقيل الهمة لا يتزحزح إلا ليثقل على النفس. تعبت ذراعاي... تعبت قدماي... هجم الإرهاق على جسدي مرة واحدة. بدت لي إدارة الوجه إلى الحائط إدارة ظهر للعالم والحركة والحدث، شعرت بفظاعتها. كانت أقسى وأصعب عليّ من الضرب!

نبتت في رأسي فكرة؛ أن أتمرّد. "لن أرفع يدي ولن أقوم بتعذيب نفسي بنفسي". أنزلت ذراعيّ، هبطت على الأرض.

صرخ الجندي وأمرني بالنهوض بسرعة ورفع ذراعي إلى الأعلى.

لم أستجب. أسرع نحوي وأخذ يركلني تارة، وتارة يضربني بعقب بندقيته، كان يضرب ويصرخ لكني لم أستجب. يئس، أخذ يشدني محاولاً رفعي، لكن كيف له أن يملك إرادتي في الوقوف؟! وأعجبتني الفكرة "ليتعبوا معي ولن أصلب نفسي بنفسي".

حين كنت في المرحلة الابتدائية؛ كانت مدرستنا مكونة من غرفة واحدة، تتجمع فيها كل الطالبات من مختلف الصفوف. في السنة الخامسة توسعت المدرسة وأصبحت غرفتين، وضم إلينا أولاد الصف الأول. لكن المدرسة لم تتوسع بمعلمة ثانية إلا بعد حين. في تلك الفترة، كانت المعلمة (الوحيدة) تستعين بطالبات الصف الخامس لضبط طلبة الغرفة الأخرى، كان لي نصيب الأسد منها. اندفعت بجدية ولعبت دور المعلمة، وأخذت أقلدها في كل شيء. كنت أطلب من الطالب أو الطالبة الوقوف بجانب سلة المهملات ووجهه إلى الحائط ويداه مرفوعتان إلى الأعلى. فتأخذ الطالبة في البكاء إلى أن يسمح لها في العودة إلى مكانها. واحترت حين استمرت إحدى الطالبات في البكاء إلى أن عادت إلى البيت. لم أكن أفهم سر بكاء الطالبات الشديد الذي يسببه الوقوف والوجه نحو الحائط، إذ لم أمر بتلك التجربة قط. "عبد الخالق" وحده كسر القاعدة. كان عبد الخالق يعيد الصف الأول للسنة الثانية، ولا يحبّ الدراسة. كان دائم الحركة، كثير المشاغبة. طلبت منه الوقوف في القرنة وإدارة وجهه إلى الحائط. ذهب مسروراً، وجعل من وقوفه مناسبة للتسلية وإضحاك الطلاب والطالبات بحركات بهلوانية وبإخراج الأصوات من تحت إبطه. ضحك الجميع ولم أفلح في شد انتباه الطلبة، طلبت منه العودة لمكانه. أخذ يرفع إصبعه باستمرار. اعتقدت أنه يريد المشاركة. لكنه كان يفاجئني بسؤاله: "أروح أقف في القرنة؟"، وأصبح يلح في طلبه هذا. أحسست أنه يحاصرني ويستهزئ

بي. طلبت من المعلمة أن لا أتابع الصف الذي فيه عبد الخالق.

ربما كان عبد الخالق فيلسوفاً حين قلب السحر على الساحر. ها أنا أستذكر تلك التجربة وأتعلم منه. فلا وقوف ولا رفع أيدٍ بعد الآن.

لَمْ تفد المحاولات في إعادتي إلى الوضع السابق، فما إن لامس جسدي الأرض حتى اكتشفت مدى حاجتي إلى النوم والراحة وتخيلت أن الأرض تهدهدني.

آه! كم كنت بحاجة إلى النوم والراحة!

وقف الجندي بالباب وتكلم شيئاً وسرعان ما حضر شخص يحمل سطلاً من الماء. أفرغه فوقي وخرج دون أن ينطق بشيء.

انكمش جسمي.. "احححححح". بدأت أسناني تصطك كمقرور. وصلت البرودة إلى عظامي. كورت جسمي علني أدفئ نفسي بنفسي. طرطقت أسناني بشدة وأخذ جسدي يرتعش برداً. البرودة تتوغّل لتصل إلى النخاع الشوكي. والأرض لم تعد ملاذاً. سحبت نفسي إلى الزاوية أحتمي بالحائط. دقائق، وكان سطل الماء الثاني يُصّب فوق رأسي.

تُرِكْتُ، منقوعة بالماء ومسكونة بالبرد، وصوت أسناني يصطك كصوت مَاتور سيارة قديم.

كم مر من الزمن حين أحضر الجندي بطانية ورماها فوقي؟

تلقفت البطانية ولففتها حول جسدي ورحت أشدها كأنما أستحلبها دفئاً. خف انتفاض جسدي قليلاً، فأطبقت جفوني تعباً. تصورت رفاقاً يقتحمون المكان، يستولون على سلاح الجندي ونهرب قبل أن ينتبّه

أحد. كانت أحلام يقظة تم اصطيادها حين سلّط الجندي ضوء سلاحه على عيني المغمضتين.

أكان الجندي يرقب أحلامي؟ أم كان يبحث عن أمر خلف جفوني المطبقة؟ أم كان يطارد شبح النوم الذي قد يتسلل إليهما؟

شاهد الجندي ذعري فاطمأن وعاد إلى كرسيه. عدت بدوري إلى إطباق جفوني. لكن الجندي كان بالمرصاد! يحرس النوم كي لا يقترب من جفوني. عاد وسلّط ضوء بندقيته على وجهي من جديد. دفنت رأسي بالبطانية، فركلني وأزاح الحرام عن وجهي وسلّط ضوء بندقيته على عيوني.

كم أنا بحاجة إلى النوم والراحة، لكنهما أصبحا طريدين لبندقية الجندي.

لماذا تخونني أيها الجسد؟

سأتمرد عليك.

جلست وروحي تتحدى جسدي. "لا أريد النوم" قلتها لنفسي بروح العناد والتحدي. أخذت أرقب الجندي عله يتعب، لكنه بقي متأهباً لاغتيال النوم. فأخذت أرقب تدرج ضوء الصباح استعجل قدومه عله يحمل معه أمراً آخر.

ضوء الصباح يملأ الغرفة. شخص يحمل صينية عليها طعام يضعها على الطاولة. رائحة خبز طازج ملأت أجواء الغرفة، وبخار شاي ساخن يتصاعد من الفنجان. لاحقت عيوني الطعام من غير إرادتي. تناول الجندي سكيناً وقسم الخبز ووضع زبدة ومربى، أكل باستمتاع أو هكذا خيل إلي. انزيمات معدتي نشطت، والجوع أصبح ضيفاً كنت في غنى عنه. أخذت

أقاومه كما نفعل ونحن صيام. لكن ذلك لم يمنع إفراز الأنزيمات واللعاب. بلعت ريقي مرات عدة، لاحظ الجندي ذلك. أحرجني حين سألني إن كنت أريد كأساً من الشاي. أجبت بـ" لا " سريعة كأنما أنفي عن نفسي تهمة ألقي القبض عليّ بجرمها المشهود. لكن (لا) السريعة لم تمنعني من التفكير بكأس شاي ساخن. أشحت نظري عن الجندي وغرقت في تصور شاي أمي الصباحي وخبزها الساخن الخارج لتوه من الطابون، والزيت والزعتر. وتنبهت أنني لم أفكر في أمي منذ أن غادرتها. توالت صورها في شريط متسلسل. وتوقفت عند صورتها وهي تدور باحثة عن الله في السماء. نسيت الجوع والبرد حين بدأت التفكير فيها.

جاء من ينظّف المكتب، انتزع الحرام عني، متجاهلاً وجودي تماماً. أخذ صينية الأكل وخرج. عاد ومسح الأرض من الماء.

دخل اثنان بكامل استعدادهما. خطواتهما سريعة واثقة، أمرا الجندي فغادر مباشرة. أحدهما من اللذين أحضراني إلى هذا المكان وسبق أن ضربني بالسوط. وكان السوط في يده.

تحفزت، قلت في نفسي جاء دور المواجهة. "المواجهة خير من الوقوف وإدارة الوجه إلى الحائط" قلت ذلك في نفسي.

وقف الثاني عاقداً يديه أمام صدره. أمرني بالنهوض ثم بالجلوس على الكرسي وجلس هو على الطاولة. أدار جذعه نحوي وأسنده بإحدى يديه. شدني بيده الأخرى من خدي قائلاً:

- هل ستغلبينا اليوم كالأمس؟

لم أجب.

– إن لدينا كل المعلومات عنك ونعرف أنك شاركت في وضع قنبلة في السوبر سول ونريد سماع التفاصيل منك.

– هذا غير صحيح.

شد خدي بقوة وحدّقت عيونه في عيوني بغطرسة:

– يا كذابة، يا وقحة، ما تغلبينا، إحنا عارفين كل شيء. بس عايزينك إنت اللي تحكي.

تحفزت رغبتي في التحدي. لا أعرف كيف اكتسبت هذه الصفة التي أوقعتني في كثير من المشاكل منذ طفولتي.

قلت:

– إذا كنتم تعرفون كل شيء، فلماذا تسألونني؟

صفعة قوية طيرتني عن الكرسي وأوقعتني أرضاً.

هل صرخت؟ لا أذكر. لكني أحسست أن جزءاً من وجهي طار أو خسف. مددت يدي أتحسسه. كل شيء ما زال في مكانه.

صرخ بقوة:

– قومي.

قمت.

– تعالي لهون.

مشيراً إلى الكرسي. جلست وما زلت أتحسس مكان الصفعة.

أمسك بيدي وأبعدها عن وجهي بعنف قائلاً:

- راح أفرجيك نجوم الظهر.

سكت كأنما يتأمل أو يفكر بشيء. ثم سأل:

- عمرك شفتي نجوم الظهر؟؟

قالها بحدة أقل.

لم أجب عن سؤاله. فصرخ:

- لمّا بسألك، لازم تجاوبي؟

وشدني من خدي الآخر.

- مفهوم؟

هززت برأسي أن نعم.

- جاوبيني، عمرك شفت نجوم الظهر؟

- نعم.

أجبت وأنا أتذكر خدعة وقعت فيها حباً برؤية نجوم الظهر. كان ذلك أثناء دراستي في معهد المعلمات.

انفرجت أساريره وعدّل من جلسته وبدا على وجهه ظلّ ابتسامة بدلت

كل هيئته، كأنه ليس هو الذي طيرني عن الكرسي قبل لحظات! . قال :

- عال، احكي لنا .

قال كلماته هذه بلطف، فأربك قدرتي على فهم الانقلاب الذي حصل . لكني رغبت في سرد القصة السخيفة، علها تشكل مناورة ما، تتيح لي بعض الراحة وفرصة للتنفس، أو ربما بحثاً عن لحظة خارج سياق التحقيق .

رحت أسرد القصة :

جاءت إحدى الطالبات معلنة أنها تعلمت كيفية رؤية نجوم الظهر، وسألت من ترغب في رؤيتها . أخرجت كل من رغبت خارج عنبر النوم . استدعت كل واحدة على حدة . جاء دوري . دخلت . ألبستني قميصا ذا كم طويل . جعلت طرف الكم المتصل بالقميص يحيط وجهي وشدت نهايته كأنه منظار سننظر من خلاله إلى السماء . أعطت أوامرها : شدي القميص جيداً، انظري إلى أعلى . كمان، كمان، دققي النظر جيداً . لحظات وتظهر لك النجوم . وإذا بكوب ماء بارد يندلق على وجهي من فوهة القميص . (في حينها كان الجو حاراً) .

ضحكا .

عاد وقطّب جبينه قائلاً :

- إما أنك هبلة أو أنك بتستهبلينا . بس نجوم الظهر اللي راح تشوفيها اليوم شيء ثاني، راح تكون نار تسخطك . وأنا كنت رحيم معاك حتى هذه اللحظة . بعد اشوية راح ييجي (دروز) ما بعرفوا الرحمة، شغلتهم بس الضرب . وذنبك على جنبك .

قال الثاني :

- إذا بتحكي بتوفري على حالك العذاب .

وددت أن أحاججهم بمخالفتهم لمعاهدة جنيف الرابعة التي تمنع التعذيب . لكني في اللحظة الأخيرة آثرت السكوت .

خرجا وقالا : "سيأتي دروز ما بيفهموا الا بالضربّ والتعذيب وما عندهم قلوب تعرف الرحمة" . دقائق ودخل اثنان . أحدهما الشخص الذي كان يضربني على رأسي عند وصولي . كان يحمل في يده كرباجاً . أما الثاني فكان ضخم الجثة ، ذا كرش يندفع أمامه كأنه عربة ، له شوارب كثيفة وصلعة واسعة افترشت معظم مساحة رأسه . متجهم الوجه ، مقطب الجبين . كأنما فصّل خصيصاً لإنتاج الرعب أو هكذا تصورته . داخلني توجس وخوف منه ، وقلت في نفسي "يمة الغول!" . لوح حامل الكرباج به في الهواء ثم أصلى به كتفي وظهري . أمسك "الغول" بشعري ورماني أرضاً . ركلني بقدمه عدة ركلات . ثم عاد وأمسكني من قبتي وإذا بي على الكرسي من جديد . حصل ذلك كلمح البصر ، كأنما يرفع شيئاً لا وزن له . جلس على الطاولة . عدّل جلسته . أصبح أكثر تحفزاً . مد رأسه ورقبته في اتجاه وجهي كما يفعل ثور يستعد للمصارعة . وكان الثور يسبب الخوف والرعب لي حين كنت صغيرة .

عندما كنا نصادف ثوراً ونحن أطفال نجوب الكروم والجبال والوديان نتصايح ونجري في كل اتجاه فيجري الثور خلف أحدنا ، ولا تخلو المجموعة من أولاد أشقياء يتحرشون به . هذا أحمد يقترب منه ويلوح له بعصاه فيلحق به ، فيعطي ساقيه للريح ويقفز سناسل عالية لم يكن

ليقفزها لولا خوفه من لحاق الثور به. يجري ويقفز دون أن يلوي على شيء خلفه في الوقت الذي يكون الثور قد حول مساره ليلاحق هاني الذي يرغب في استعراض مهارته في ملاحقة الثور ويلهب حماس البنات في الصراخ، نكون قد تسلقنا الأشجار عالياً. ورغم ذلك يملأ صراخنا الوديان خوفاً من الثور.

تفرس في وجهي جيداً، ركز عيونه في عيوني. ارتعبت، كأنما أطلق قذيفة من الرعب اخترقت كياني، كطفلة أمام غول في قصص الطفولة المخيفة، ذلك الوحش الخرافي الذي شكل رمزاً للخوف والوحشية والجبروت. أشحت بعيوني، فصرخ بي:

- انظري في عيني، أريد قراءة الكذب في عيونك.

لم يكن بإمكاني فعل ذلك. سيكشف الخوف الذي أصابني بالتأكيد. و"ربما سيعمل على تنويمي مغناطيسياً، يا ويلتاه!". قلت ذلك في نفسي. "لكن لا، لا تجزعي يا عائشة. تمسكي بوعيك، فلا يحصل ذلك دون إرادتك".

عاد وصرخ من جديد:

- قلت لك، انظري في عيوني.

ولكني لم أنظر.

- تخافين من كشف الأكاذيب التي تشع من عيونك؟

شعرت أني في ورطة؛ إذا لم أنظر فأنا أخفي شيئاً، وإذا نظرت قد يدرك خوفي! تشجعي يا عائشة، لا بد من التحدي.

كما يلبس الجنديّ سترة واقية يحتمي بها من الموت، ألبست عيوني غشاوة كأنما لا ترى. أصبحت أقل خوفاً وأكثر ثقة. نظرت في عينيه فلم أخف. أصبح شخصاً عادياً يخلو من الوسامة، لم يعد غولاً. كيف انتصرت على خوفي؟ أم كيف خلقت لنفسي غولاً؟ أم كيف تغير؟

قال:

- لا حاجة لتمثيل البراءة. الكذب يشع من عينيك. وأنت أخطر بكثير مما نظن. الأجدى بك الاعتراف. لن يفيدك عنادك شيئاً.

(أخطر بكثير مما نظن) جملة دغدغت غروري وغذّت حالة التحدي عندي.

صرخ:

- لا تمثلي البراءة!

وبصراخ أعلى قال:

- ابعدي عن وجهي.

قالها ودفعني مع الكرسي بقدمه فسقطنا أرضاً.

تقدم الآخر وهوى بكرباجه الذي التف على ظهري فخاصرتي. آلمني كثيراً فصرخت من قحف رأسي الذي انكوى بلهيب الألم. كأنما الصرخة ألهبت حماسته فراح ينهال ضرباً بكرباجه على مختلف أنحاء جسدي كمجنون. واختلط صوت السياط بسوط الصراخ. ولم يتركني إلاّ كومة من رماد، جسداً مسجى بلا حراك.

حضر من يسكب الماء البارد فوق الجسد المسجى. تركاني في تلك الحالة وخرجا.

ماذا أفعل بهذا الجسد الذي تحوّل إلى دمل؟

تركّز تفكيري في الألم الذي كان يشتعل في جسدي كما تشتعل النار في الهشيم.

دقيقتان؛ ربما خمس دقائق، وربما ساعة وربما أكثر! الإحساس بالزمن غائب ولا حضور إلا للألم، وأنا على الأرض بلا حراك.

دخل شخص بهدوء.

- "مساء الخير يا عائشة".

قالها بلطف فاجأني. أو ربما فاجأني سماع اسمي ينادى به دون الكلمات البذيئة! لأول مرة في التحقيق، أخاطب بلغة إنسانية! يقال لي مساء الخير بدلاً من المسبات البذيئة والتلويح بالكرابيج! كان وقعها على سمعي كوقع شربة ماء على مسافر في الصحراء.

أمسك بيدي وأعانني على النهوض وأجلسني على كرسي وجلس هو على آخر خلف الطاولة.

كان في الأربعين من العمر يصلح أن يكون أباً، متوسط الطول، وليس بالسمين أو النحيف، أسمر البشرة، حليق الوجه. توسع جبينه بسبب صلعة صغيرة اتصلت به. عيونه غير متسعة سوداء. وجهه ودود مثلما صوته.

سأل بلهجة تضامنية.

- هل ضربوك كثيراً؟

كان لسؤاله فعل تضميد الجراح. أخذت أشكو قسوتهم ووحشيتهم. كان يحسن الاستماع ويبدي تضامناً.

اخيراً ختمت حديثي بسؤال:

- هل هي شجاعة أن يضربوا فتاة؟

- بالتاكيد لا.

قالها بتأكيد واضح يحمل طابع الاستنكار للتعذيب، ثم شرع يتكلم عن الاتجاهات المختلفة في التحقيق. فهناك من يؤمن بالضرب والتعذيب، وهناك من يعارض، وهناك من يرفض رفضاً باتاً. وقال إنه من الذين يرفضون التعذيب والضرب بشدّة، (في حديث مع رسمية بعد انتهاء التحقيق، كان هو أحد الذين كانوا يضربونها بشدّة)، وأخذ يصف المشاكل الكثيرة التي يتعرّض لها بسبب موقفه هذا! ثم تحدث عن نفسه بأنه ممن يعيشون في الكيبوتسات. توسع في الحديث عن مجتمع الكيبوتس؛ عن المساواة بين أعضائه، عن الحياة الاشتراكية، صوّر الحياة في الكيبوتس كجنة الله على الأرض والعدالة فيها مطلقة. (وأنا كنت ممن يعتقدون بمثالية الحياة في الكيبوتس). ثم عرّج في الحديث على المجتمع العربي، تكلم عنه كخبير يعرف تفاصيل لا أعرفها. أثار دهشتي وانبهاري من سعة اطلاعه ومعرفته ومنطقه. حتى أن الإحساس بالندية أمامه اختفى وشعرت بتفوقه. كيف لا وهو يعرف عنا (العرب) أكثر بكثير مما أعرفه عن أنفسنا؟

أنهى حديثه دون أن يسألني أي سؤال. وقبل أن ينهض، وعد أن لا

يتركهم يضربونني بعد الآن. ثم أردف:

- بس عليك أن تساعدي نفسك.

- كيف؟

- اعترفي، فلا تعطيهم مبرراً للضرب. وهذا أفضل لك.

لسعتني جملته الأخيرة كذاك السوط الذي هوى على ظهري ممن سبقه. أكنتُ واهمة في اعتقادي أنه يختلف عنهم؟ أكان جهده كله ليقول جملته الأخيرة؟

وهو يهم بالخروج قال:

- إذا ضايقك أحد أو كنت بحاجة لشيء، اطلبيني، قولي بدي "أبو النمر".

وعندما اقترب من الباب، التفت وسألني:

- هل أكلت؟

وأكمل مباشرة قبل أن أجيب:

- سأجعلهم يحضرون لك طعاماً.

خرج وتركني مذهولة مرتين؛ الأولى عندما أذهلتني ثقافته ودماثته؛ والثانية حينما نسف كل شيء حين نصحني بالاعتراف! ولكن ألا يمكن أن يكون معارضاً فعلا للضرب والتعذيب، وبخاصة أنه من سكان الكيبوتسات؟ أم كان يمثل مجرّد تمثيل؟ أيعقل أن لا يكون بينهم أفراد إنسانيون؟ لعلّه يمثّل دوراً يتناسب مع طبيعته؟!

كنت أحاول البحث والتشبث بموقف إنساني حتى لو كان تمثيلاً كأنما يلطّف من قسوة الواقع! لم لا يكون بينهم أناس جيدون؟ ألم نتداول قصة الجنرال "ميخا" الذي تصدى لـ"موشيه ديان" حين غضب "ديان" على "عبد الجواد صالح" رئيس بلدية البيرة الذي لم يقف مرحباً به حين دخل مكتبه في البلدية؟ قال الضابط "ميخا" "لموشيه ديان" في حينه: كيف تطالبه بالوقوف احتراماً لك وأنت تدخل عليه محتلاً لا ضيفاً؟! رغبتي تريد وجود أناس جيدين بينهم، وعقلي يحذرني: إنه ثعلب يلبس لباس النسّاك، إنه ممثل، أليس الخداع من طبع اليهود كما تؤكد القصص التي سمعتها من نساء دير ياسين؟ قلن إن علاقات جيدة كانت تربطهم بجيرانهم اليهود من (كبانية تل بيوت) كانوا يأتون لزيارتهم وشرب القهوة في بيوتهم وشاركوهم أفراحهم وأتراحهم. لكن أهل "دير ياسين" تفاجأوا من أن العديد ممن كانوا يتزاورون معهم، هم أنفسهم من قاموا باقتحام القرية ونكلوا بهم يوم المذبحة! "كوهين" اقتحم مع أذان الصباح وهو مسلح ويلبس ملابس جيشية، بيت "محمود جودة". حين تعرّف عليه "محمود" صرخ به: ماذا جرى يا "كوهين"؟ ألم تشرب القهوة الليلة عندي كصديق؟ أم كنت تشرب قهوتي وتخطط لقتلي والاستيلاء على بيتي؟

تركت وحدي. عادت أوجاع جسدي تفرض نفسها. أخذت أتحسس مواقع الألم. شعرت أن جسمي ليس إلاّ دملاً، أتوجع أينما ألمسه. لماذا أشعر بالألم الآن، بينما لم أشعر به أثناء الضرب إلاّ في اللحظة التي تسقط فيها الضربة على جسدي؟

كان الوقت مساء. ها هو المساء الثاني وأنا في ساحة الوغى كما حدثت نفسي. كانت للغرفة نافذة. اقتربت منها لأستطلع ما في الخارج.

بدأ خيالي بشكل أتوماتيكي يبحث عن خطة للهرب، وانطلق خيالي يحلق في صياغة مغامرات وبطولات وخيالات؛ تصوّرت أن الفدائيين يقتحمون الموقع ويحررونني والرفاق الآخرين من ذاك المكان الجهنمي، ثم تصورت أني أختطف مسدساً من أحد المحققين، فأطلق النار عليهم واحداً واحداً، أضع رصاصة واحدة في جبين كل واحد منهم، وتخيلت أني أفعل ذلك فعلاً. وعندما وصلت إلى أبي النمر ترددت في إطلاق النار عليه؛ فربما ليس سيئاً. وما زلت في تلك الخيالات والأحلام حتى قطع منظر الطعام يدخلونه إلى أحد البركسات المجاورة خيالاتي. هربت الأحلام وهجم الجوع. فمنذ إفطار الأمس لم أذق الطعام.

دقائق ودخل شخص يحمل صينية عليها طعام. سأل بلامبالاة: أتريدين تناول الطعام؟ ثم وضعها على الطاولة وخرج. كان الطعام قطعة خبز وقطعة جبن صفراء وقليل من (المرجرينا) مع فنجان من الشاي. هتف قلبي للطعام. لكني تراجعت قليلاً. وقلت في نفسي: لعلهم قد وضعوا فيه شيئاً! الأجدر بي ألاّ أتناوله. لكن الجوع لا يمهلني! وبحثت عن مخرج لتخوفي وقلت: "إن وضعوا شيئاً فسيكون في الشاي وليس في الخبز والجبن".

لم أشرب الشاي وأكلت الخبز والجبنة و(المرجرينا).

(المرجرينا) مرتبطة في وعيي باللاجئين. وها هي تلحقني في أقبية التحقيق.

كنا نرفض تناولها من عند بيت خالتي وكانوا يحصلون عليها من مؤن وكالة غوث اللاجئين. كنا نبرر رفضنا أكلها بدعوى أن طعمها لا يروق لنا، وفي الحقيقة كنا نتجنبها كأننا نتجنب تهمة اللاجئين من أن تصيبنا، أو

كأننا نأكل شيئاً ليس لنا، شيئاً محرّماً علينا. لقد ارتبط طعمها ورائحتها في وعيي باللجوء والتشرّد. لكني أجد طعمها الآن لذيذاً، "كيف لم أكن أستسيغ طعمها وهي لذيذة بشكل لا يوصف كما اكتشفت الآن، وحتى أنني مستعدة لالتهامها دون خبز؟"

دخل اثنان، لم أذكر أني رايتهما من قبل. أحدهما له بشرة وهيئة أوروبية، في الثلاثين من عمره، والآخر كان شاباً في غاية الوسامة: طويل ذو عيون خضر وبشرة صافية، تتدلى على جبينه العريض خصلة شعر ناعم كستنائي اللون، كان يصلح لأن يكون ممثلاً.

بدأ الأول حديثه مشبّعاً بالاحتقار والتصغير، مشيراً بشاهده:

- إنت! إنت الحقيرة، تريدين مقاتلة إسرائيل؟! هاهاها....

أطلقها قهقهة مفتعلة. أكمل:

- إسرائيل التي هزمت كل الدول العربية مش بـ ستة أيام، وإنما بست ساعات، جاي إنت الحقيرة بدك تحاربيها؟ ولك إنت غبية وهبلة. لأن واحدة مثلك صبية متعلمة لازم تشكرنا اللي اجينا عشان نحضركم لأنكم متخلفون. لازم تعرفي انه كل واحد براسه عقل هو اللي بتعاون وبشتغل معنا، مش بحاربنا.

استفزني كلامه وطريقته الاستعلائية. وددت الانفجار به، بذلت جهداً لأكتم غيظي. ورغم ذلك، قلت بلهجة فيها حدة:

- إذا كنتم أقوياء ومتحضرين، فما حاجتكم لأن تضربوا فتاة (حقيرة) مثلي كما تقول؟

- لا تتواقحي. ولا تحاججي. عليك أن تسمعي وتفكري بما نقول.

استمر في هجومه؛ هاجم الأمة العربية الضعيفة والمتخلفة، هاجم قيادتي التي باعتني.

ثمّ تدخل الشاب لأول مرّة قائلاً:

- ما شأنك أنت بالسياسة؟ أنت صبية حلوة لا شأن لها بالسياسة، بس الحق على الرجال اللي بورطوكم وهم بتخبوا.

كان تدخله هذا خارج السياق أو هكذا شعرت، ربما كان شكله الذي يصلح لأن يكون ممثلاً لا محققاً خارج سياق التحقيق. أغاظني تدخله ذاك أكثر من كل الكلام الذي قاله الآخر. رأيت فيه منطقهم المتناقض ووجدتها فرصة لأكشف ذاك التناقض. كأن المنطق هو سيد الموقف!

- إذن لماذا تحارب بناتكم في جيشكم؟ ألا يوجد رجال عندكم أم أنهم مختبئون؟

صفعة قوية لفحت وجهي من الشخص الأول.

- لا تتواقحي ولا تحاججي. بوزك هذا سدّيه.

ممسكاً بفمي يريد تحطيمه.

رغم الألم الذي شعرت به من محاولته تحطيم فمي، لم أشعر بالندم لتقديري أن ما قلته كان مهماً في كشف تناقضهم!

أكمل الأول هجومه:

- ولك، لا تجاوبي أسيادك. ولك مسؤولينك اللى إنت قاعدة بتاكلي قتل عشان تحميهم، هم اللي اعترفوا عليك. بتقدري تقولي إلنا كيف جبناك؟ جاوبي هالقيت، خليني أشوف فصاحتك؟

لم أستطع الإجابة عن السؤال ولا أريد، بل لا أريد طرح السؤال على نفسي ولا أرغب، فليس له وظيفة الآن. ثم أن التعميمات التي قرأناها وناقشناها حول ظروف التحقيق وعوامل الصمود تتطلب منا أن لا نفكر بطروحات العدو. ففي اللحظة التي نبدأ فيها مناقشة مقولاتهم بالطريقة التي يطرحونها يبدأ الانهيار، وكنت أخاطب نفسي بأنني مصممة على الصمود.

بقيت صامتة، فواصل الهجوم:

- المسؤولين الكبار فالتين. هالقيت بتلاقيهم في الفنادق الضخمة، على شط البحر بيسبحوا وبشموا الهوى على كيفهم، وبرسلوك انت يا غبية تحطي القنابل للأطفال الصغار. قولي ليش هم هيك وليش انت هيك؟ ولك انت رايحة تخمجي في السجن.

هو لا يدرك أن لا أحد غيرهم ارسلني لعمل شيء. ولكنهم هم منذ طفولتي فعلوا ذلك. منذ تفتح وعيي. منذ أن رأيت أسرة خالتي وأهالي "دير ياسين" في الأيام الأولى من تشردهم، وأنا أحلم بالقتال لإعادتهم إلى قريتهم وإعادة اللاجئين إلى بيوتهم ومدنهم وقراهم! كثيراً ما حلمت بقيادة الجيوش لتحرير فلسطين بعد أن قرأت كتيباً عن جان دارك وجدته في أحد رفوف مكتبة مدرسة بنات رام الله. هم لا يعرفون مرارة الأسئلة التي كانت تطرح نفسها حول الهوية الوطنية، أنا فلسطينية بكل كينونتي ولكن لا يسمح لي بحمل هذه الهوية!

وفلسطين تقع غرباً على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وأحلم برؤية البحر، ولكن يحظر عليّ إلاّ النظر شرقاً. إنه لا يدرك مرارة الهزيمة التي شربناها في حرب الست ساعات كما يقول؟ وكيف صبغت هذه المرارة روحنا ووجودنا بحيث يستحيل التعايش معها؟ يبدو أنه لا يدرك! ولكن كيف لا يدرك؟ فلولاهم، لولا مجيئهم إلى بلادنا، لولا اعتداؤهم علينا لما عانينا كل الذي نعانيه، لما حصل لنا كل الذي حصل وما زال يحصل من تشرد وتشتت وحروب وهزائم وسجون واعتقالات!

من المؤكد أنه لا يرغب في الإدراك. كنت أحدث بذلك نفسي.

واصل هجومه:

- اتركي للمسؤولين عن السياسة محاربة إسرائيل. لأنهم هم المسؤولون عن الهزائم. إنت لازم تفكري بمستقبلك. لازم تفكري بنفسك كيف تكوني مبسوطة وتتزوجي وتنجبي أطفالاً، وتلبسي الحرير والذهب والجواهر، بدل ما تكوني في السجن.

لم يكن يشغلني مستقبلي الخاص أكثر من المستقبل العام لشعبي وأمتي ووطني، لم أفكر في الزواج خارج إطار النضال. لا بد للشخص الذي سأتزوجه أن يكون مناضلاً، ربما لا نملك إلا خيمة ودراجة نارية، ننصب خيمتنا أينما نشاء ونحملها أين نريد. هذه كانت أحلامي. لم أحلم بالذهب والجواهر والحرير، بل كانت بعيدة عن تفكيري لدرجة كرهي لها. لا أذكر أني توقفت يوماً أمام دكان صائغ. ومنظر الذهب على صدور النساء أو في أيديهن كنت أراه قبيحاً وخالياً من الجمال.

لماذا لم أكن أفكّر في مستقبلي الخاص؟ أعني في الزواج وإنجاب الأطفال ولبس الذهب والحرير كما تفكّر الفتيات من جيلي؟ ألأني كنت أحلم بصناعة التاريخ وبتحرير البلاد والإنسان؟

كثيراً ما كنا نحلم ببلادنا حرّة، نتحرّك فيها وعلى شواطئها بحرية وليس كغرباء، لم يخطف أبصارنا لمعان ذهب أو زركشة ثياب، كنا نشعر أننا نتمدد خارج جلودنا فيغطي وجودنا أرض الوطن كله، بل أرض العرب وحتى الكرة الأرضية، ندخل نفوس كل الناس، نخلق عالماً جديداً وجميلاً، وقبل كل ذلك؛ عالما حراً. هل كان ذلك أنانية حين وددت أن أكون الوطن والقضية؟ أكان ذلك لا يحتمل مشاريع فردية من زوج وأطفال؟

كان مشروعي بناء وطن وليس فقط بناء بيت. كان مشروع حياتي هو مشروع شعب بدلاً من عدد من الأطفال حريتهم وحياتهم في ظل الاحتلال غير مضمونة. باختصار؛ كانت أحلاماً عريضة وواسعة وعظيمة، تهون الصعاب في سبيلها. كنّا نردد دائما: "إن لم أحترق أنا وتحترق أنت، فمن أين يأتي النور؟".

استمر في هجومه التحريضي:

- (ولك)، اتركي السياسة للسياسيين. (ولك) إنت فكري بأمك التي تتعذب من أجلك الآن. (ولك) ما حدا بفكر فيك إلا أمك. (ولك) مائة أم تبكي، ولا أمي تبكي!.

ذِكْر أمي أصابني في مقتل، لم يرتد ككرة كغيره من الكلام. علق، علق في مكان ما في صميمي، انقبض قلبي وهوى. قفزت صورة أمي وسط الشارع وصوتها يفيض مرارة وفجيعة!

كثّف هجومه على الوتر الذي يمس العلاقة مع أمي. هل التقط تغيّراً ما في تعابير وجهي أو عيوني؟ هل نزّ الأسى مني والتقطه؟

أكمل:

ها؛ ماذا ستفعل أمك حين تجنّين أو تشلّين؟ ماذا لو سقطت ضربة على رأسك وسببت لك الجنون أو العمى أو الشلل؟

مرّة أخرى لا يرتد هجومه، سهم الجنون والشلل علق هو الآخر إلى جانب سهم أمي! فأثار مخاوفي من مستقبل مخيف قد أصل إليه. جنون وشلل؟ لا، لا أريد.

تابع هجومه:

- سنخرج الآن وسنرسل لك (دروز) مجانين ومتخلفين، لا يعرفون إلاّ الضرب، قلوبهم قاسية لا تعرف الرحمة. ستشلين أو تجنين أو تصابين بالعمى، ماذا ستستفيدين بعد ذلك؟ ومن سينظر إليك بعدها؟ لن يتعذب أحد غيرك أنت وأمك. ها نحن ننصحك وسنخرج الآن ليأتي بعدنا من لا يعرف الرحمة مطلقاً.

خرجا، وكان قد حصل اختراق في جبهتي الداخلية.

القلق والخوف من مصير بدأت أرتعد منه: العمى أو الشلل أو الجنون أو كلها مجتمعة ووقع ذلك على أمي! أصبح الخوف من ذاك المصير جرثومة أو فيروساً يقضم الأعصاب وإرادة التحدي. كأني لست المتحدية التي كنتها قبل لحظات! "أأصبح مجنونة أو مشلولة أو عمياء؟! يا للهول! ماذا سيحصل لأمي لو أصبحت كذلك؟ لا، لا، هذا غير ممكن! ولكن لماذا ليس ممكناً؟ أليس الضجيج ما زال يسكن

رأسي؟ أليسوا مجانين ولا رحمة في قلوبهم؟ ولكن لا، لقد عُذبت (جميلة بوحيرد) كثيراً ولكنها لم تجن، فلماذا أجن أنا؟ اصمدي يا عائشة، هي قضية عض أصابع".

أخذت أستذكر أحاديثي ومناقشاتي مع رشيدة حول الاحتمالات التي قد تصيبنا، قلنا: كل شيء ممكن، ونحن على استعداد لدفع الثمن لأن الاحتلال هو الشرّ المطلق وما دونه شرّ نسبي. كنا قد تحدثنا عن كل الاحتمالات عدا الجنون، لم يخطر في بالنا! لماذا أرتعد من فكرة الجنون أو الشلل وأثر ذلك على أمي؟ لماذا أفكر بأمي الآن ولم أفعل ذلك وأنا انخرط في مقاومة الاحتلال؟ الكلام خارج الموقف سهل. أما الآن فيبدو فظيعاً، ما الذي جرى لك يا عائشة؟ لماذا ترتعبين من فكرة الجنون؟ جنون؟ يا للهول! ، إن الأمر جدي. قد يحصل فعلاً. إنهم لا يرحمون. وأصبحُ مجنونة؟ لا لا، الموت أفضل من ذلك. وتعترفين يا عائشة؟ لا لا، لم أختر المواجهة لأعترف. وتشلين أو تجنين؟ لا لا، الموت أفضل من ذلك؟ وتعترفين؟ لا لا، الاعتراف ذل وهزيمة غير محتملة. يا الهي! ألا من مخرج؟! يا إلهي، لماذا الضرب كان يستفز إرادتي وعنادي وصمودي بينما التفكير به يجعلها تخور؟

أين يكمن مفتاح الضعف ومفتاح القوة في النفس الإنسانية؟ عندما كانت الضربات تنهال على رأسي لم أفكر قط بأنني قد أجن أو أشل. كنت أتلقى الضربات فتستنهض طاقة كل خلية في كياني، وكل مفردة من مفردات وعيي، بهدف الصمود. كنت أشعر أني قوية وند، بل أتفوق عليهم. وها أنا أرتعد خوفاً من فكرة الجنون أو الشلل بسبب جملة سمعتها، والاحتمال قد لا يحصل؟

ولكن ماذا لو حصل؟

لا، لن يحصل.

لماذا لا يحصل؟

كنت في دوامة الصراع، حين دخل اثنان واقتاداني خارج الغرفة، كان الليل قد حل، لم أنتبه للجو إن كان بارداً أو دافئاً، كنت منكفئة داخل نفسي مع صراعي الذي حل بي كمرض. وجدت نفسي داخل غرفة في عمارة التحقيق. غرفة عارية تماماً. لا شيء فيها، تركاني وحدي وخرجا. ماذا أفعل في غرفة عارية تماماً؟ أأجلس أرضا أم أقف مرتكزة إلى الحائط أم أسير في الغرفة مفكرة؟

بدأت أصوات تعذيب تداهم سمعي من الغرف المجاورة؛ صراخ، أنين، جلد، ضرب، مسبات، استغاثات! كأنه يوم الحشر. أي جحيم هذا الذي يحيط بي؟

وضعت كفيّ على أذنيّ كي لا أسمع شيئاً دون فائدة. أصوات التعذيب تأكل أعصابي كمنشار يقرض جذع شجرة. لم أستطع فعل شيء في مواجهة ذاك التعذيب الذي أسمعه ولا أراه، ويؤثر في أعصابي وقدرتي على الاحتمال أكثر من ذاك التعذيب الذي كان ينزل على جسدي مباشرة! (تبوز) أعصابي من سماع أصوات التعذيب والألم. لم يكن الأمر كذلك أثناء ضربي، كنت بكل كينونتي أقاوم وأتحدى. أمّا هنا، في هذا الوضع؛ فلا مقاومة ولا تحدي ولا مشاركة. شعرت أن أصوات التعذيب تغزّني كإبر تنفذ تحت جلدي. الأصوات تعذّبني ولا أعرف كيف أواجهها أو حتى أهرب منها، حتى الصراخ في وجه أحدهم غير متوفر. إنه الحصار والقهر دون مفر. إنه الجحيم بعينه!

مرّ من الغرفة أحدهم وهو يحمل كرباجه. صرخ بي:

- أنت تحبين زوجة أخيك، أليس كذلك؟

لم يكن يسأل وإنما يقر حقيقة.

صرخ بآخرين في غرفة مجاورة:

- اذهبوا واحضروا أمها وزوجة أخيها وعلقوهما من أثدائهما لتسمع صراخهما وهما تتعذّبان.

قال كلامه وأكمل سيره إلى غرفة أخرى.

للحظة، اعتقدت أن ذلك جدّي اقشعرّ جسدي، وقف شعر رأسي هولاً. "يا للكارثة لو أحضروهما وعذبوهما! لن أستطيع تحمّل ذلك. قد أجن بلا ضرب! يا للفكرة المجنونة. يا إلهي؛ أي نوعية من البشر هؤلاء؟ كيف يقدرون على فعل ذلك؟ ما ذنبهما؟ يا الهي! أي قسوة تختزنها عقولهم وقلوبهم؟!"

هاتف من داخلي خاطبني: "مهلا يا عائشة؛ تماسكي. لماذا تهولين الحدث في نفسك قبل أن يحصل؟ ربما لن يحصل! قد يكون الأمر مجرّد تهديد!"

الفكرة كانت كخشبة النجاة، تمسكت بها. الأمر مجرد تهديد. "نعم، إنه مجرد تهديد ليس إلا، يجب أن تتماسكي ولا تسمحي بانهيار إرادتك يا عائشة".

هجع كل شيء في الساعات الأخيرة من الليل؛ الضرب والصراخ والمسبات إلاّ من أنين خافت آتيا من غرفة مجاورة. حضر اثنان وأعاداني إلى (البركسات)، إلى الغرفة التي جرى فيها معظم التحقيق. تركاني

فيها ربما لساعة من الزمن، لم أستطع خلالها التخلص من أصوات التعذيب رغم السكون الذي كان يملأ المكان. أخذت تجول في خاطري صرخة تهزّ سكون الليل، تهز المكان، تهز العالم! أرغب في الصراخ في وجوههم "نازيون، محتلون، ظالمون، ويجب مقاومتكم". أرغب في قول: "أنا وضعت القنبلة. وهذا أقل ما تستحقونه أيها المحتلون". كبرت الرغبة في داخلي لأنفجر في وجوههم!. "أرغب في إعلان عدائي الناصع لاحتلالهم ومظالمهم وقسوتهم. سيضعونني في السجن؟ لا بأس، لن أبقى فيه طويلاً! وسأكون قوة تحدّ لهم، وسأخرج رغماً عنهم. لن يتركني الفدائيون لفترة طويلة في السجن، سأخرج رغماً عنهم، ولكن يجب أن أخرج سليمة لا مجنونة أو مشلولة".

كنت أزين الاعتراف لنفسي.

مع ساعات الصباح الأولى دخل اثنان سبق وأن ضرباني. أجلساني على الكرسي، بينما ارتكز كل منهما على إحدى حواف الطاولة. بادر أحدهما بقوله:

- هل تعرفين أننا جئنا لشلك؟

وأصابت جملته تلك مقتلي.

ضربني كفاً على وجهي. وقبل أن يرفع يده مرة أخرى، كنت قد اتخذت القرار بالاعتراف عن العملية.

اعتراف وما بعده

صرخت بتحد:

- وماذا تظنون؟. ألستم محتلين؟. وهل تتوقعون أن نرميكم بالورود بدلاً من القنابل؟ نعم. أنا وضعت القنبلة. إنه أقل شيء أستطيع عمله من أجل وطني وشعبي.

شعرت بأني قذفت في وجوههم قنبلة. وبأني تحررت من خوفي وضعفي! ها أنا أصبحت نداً شرعياً لهم.

أمتشقت نفسي من الداخل: "من هذه اللحظة لن أهادنهم! ستكون الحقيقة واضحة ودون موارية. هم محتلون، وأنا أقاوم الاحتلال. هم المعتدون وأنا صاحبة الحق".

لقد زينت أمر الاعتراف وحولته إلى تحدّ!

ابتعدا عن الطاولة.

قالا: حسنا. سجلي اعترافك هنا.

ابتسمت للمفارقة. أمي تستدعي للفدائيين ولا تعرف أن ابنتها التي تضع رأسها على حضنها الآن وصديقات لها هن اللواتي قمن بالعمل. وأننا لم نقفز من على سور ارتفاعه ٣ أمتار ولا حتى متر. لو أستطيع أن أقول لها "يوجد فدائيات كذلك يا أمي"؟! وماذا ستقول حين تعرف أن الفدائيين الذين استدعت لهم بالخير لم يأتوا من الأردن وإنما خرجوا من بيتها ومن حضنها؟

أليس اعترافي هذا يوفر فرصة للإعلان عن وجود فدائيات كما الفدائيون؟ نعلنها للعالم؛ للأعداء وللأصدقاء؟ وأننا نشارك في النضال كالرجال!

ها أنا أعلنها: إننا شعب يناضل بكامل أفراده: نساؤه ورجاله لا فرق بينهما، إننا نريد حريتنا وحرية شعبنا.

لم أبخل على نفسي في تبرير الاعتراف وتزيينه. وربما هذه هي الحقيقة. أهرب من النضال الذي يستخدم القنابل وأختار نضالاً آخر، أكان ذاك يناسبني أكثر؟

كنت وحدي في الغرفة، أجادل نفسي في تلك الأفكار التي تراكضت إلى رأسي بعد الاعتراف. تحركت داخل الغرفة، كل شيء في جسدي يؤلمني. اقتربت من الشباك. وقفت أمامه ونظرت إلى الخارج. كان قد تجمهر في الساحة عدد من المحققين. يحمل أحدهم الورقة التي كتبت عليها اعترافي، أو هكذا خيّل إليّ. بدا لي أن اعترافي شكل عندهم أحجية. كنت متأكدة أن الكلام يدور حول إفادتي وما كتب فيها وذلك من خلال التعابير وإشارات اليد التي تمثل إرادة المقاومة.

فهل وصلت رسالتي؟ أنهم محتلون ولا بد من مقاومتهم؟ هل يعترفون بمشروعية نضالنا؟ هل يعني ذلك أنني حققت خطوة إلى الأمام؟ هل يعني أن خياري صحيح وخطوتي سليمة؟

بية دون أن ينطق بكلمة. أعادني إلى المكان الذي
ت فترة من الزمن وحضر الاثنان اللذان اعترفت
ر يتطاير من عيونهما. وقالا:

تها الشرموطة؟

خفيف الضرب عني؟

كفاً واحداً؟ فهل هذا تعتبرينه ضرباً؟

ن كفك فقط.

ين ما هو الضرب وما هو التعذيب.

ان وثالث. فصرخت بهم قائلة:

علاقة بها. سأكذب، كي توقفوا التعذيب عني.
وله؟ وسأنفي كل شيء في المحكمة، فالاعتراف
ه.

انفي في المحكمة! إنك غبية. كيف ستثبتين أنك
و أنك ضربت؟ ومن سيصدقك؟

سأثبت ذلك؟ أخذت أفكر في مخرج. ولكن
بالضرب معلناً أنه سيشلني ويجنني، لأصبح
قرأوا خوفي من فكرة الجنون أو الشلل حتى

هل أستمر في إقراري بوضع القنبلة؟ أم أمضي

أقفل عائداً إلى المسكوبية دون أن ينطق بكلمة. أعادني إلى المكان الذي كنت فيه وخرج. مرّت فترة من الزمن وحضر الاثنان اللذان اعترفت أمامهما. جاءا والشرر يتطاير من عيونهما. وقالا:

- هل تضحكين منا أيتها الشرموطة؟

- لا، ولكن أردت تخفيف الضرب عني؟

- ولكنّا لم نضربك إلا كفاً واحداً؟ فهل هذا تعتبرينه ضرباً؟

- ضربت كثيرا. وليس كفك فقط.

- الآن سأجعلك تعرفين ما هو الضرب وما هو التعذيب.

ثم خبطني كفاً أردفه بثان وثالث. فصرخت بهم قائلة:

- سأقول أشياء ليس لي علاقة بها. سأكذب، كي توقفوا التعذيب عني. فما الذي تريدون مني قوله؟ وسأنفي كل شيء في المحكمة، فالاعتراف تحت الضرب لا يؤخذ به.

- حسنا؛ اعترفي الآن وانفي في المحكمة! إنك غبية. كيف ستثبتين أنك اعترفت تحت التعذيب أو أنك ضربت؟ ومن سيصدقك؟

أسقط في يدي، إذ كيف سأثبت ذلك؟ أخذت أفكر في مخرج. ولكن المحقق لم يمهلني. بدأ بالضرب معلناً أنه سيشلني ويجنني، لأصبح مهزلة بين الناس. هل قرأوا خوفي من فكرة الجنون أو الشلل حتى يرددوها ويركزوا عليها؟

أحسست أني مربكة. هل أستمر في إقراري بوضع القنبلة؟ أم أمضي في الإنكار؟

مربكة كنت، والإرباك في ذلك الظرف هو الخطر.

- سأقول ما تشاؤون ولكن لا تضربوني.

- نريد أن تقولي ما لديك.

- بل سأقول ما تريدون.

عدة صفعات مع لازمة المسبات.

- أنا وضعت العبوة.

- وهل ستدلينا على الموقع الذي وضعت فيه العبوة؟

- نعم.

ركبنا السيارة من جديد. كنت مضطربة التفكير أثناء الطريق. ماذا لو سلكت السلوك الأول، وأنكرت معرفتي بالمكان وكل شيء؟ هل سأبدو عدوة غير جديرة بالاحترام؟ هل سأعرض نفسي لتعذيب أكبر يوصلني ربما إلى حالة جنون أو شلل؟ هل من مخرج آخر؟

وصلنا المكان الذي حضرنا إليه في الصباح. قلت:

ولكن هذا هو المكان الذي أحضرتموني إليه هذا الصباح! هل أنتم متأكدون أنه المكان الذي انفجرت فيه العبوات؟ قالوا: نعم. وسترينه الآن من الداخل.

وقلت في نفسي: "سأشاهد أثر الانفجار".

في الداخل لم يبد أي أثر لأي انفجار أو خراب. دهشت. هل هذا هو المكان الذي انفجرت فيه العبوة أم أنه شبيهه؟ هل أسرعوا في إعادة ترميمه إخفاء للأثر ودلالاته؟ أم لسرعة في الإنجاز؟

تجولنا في المكان. غريب ذلك الإحساس الذي انتابني في تلك اللحظات. قبل أكثر من أسبوعين، كنت قد دخلت المكان وأنا أحمل عبوة لنسفه برجال الجيش والمخابرات الذين سيتوافدون على المكان بعد انفجار القنبلة الأولى. كنت أدخل المكان للمرة الأولى، عكس زميلتي التي درسته خلال زيارات عدة وحددت المكان الذي ستوضع فيه العبوات. ولكني غيرت من التخطيط داخل المكان، كان يجب أن نضع العبوتين في المكان نفسه حين كان التخطيط يقضي بانفجار العبوتين في اللحظة نفسها. أما وقد تغيّرت الخطة، فلا بد من تغيير المكان. لا يمكن وضع العبوة التي ستنفجر بعد خمس دقائق بالقرب من الأولى. لا بد من البحث عن مكان آخر يكون بعيداً عن العبوة الأولى. أخذت أبحث عن مكان مناسب. بينما وضعت زميلتي عبوتها وأسرعت في مغادرة المكان. انتابني شعور بالخذلان، فكيف لم تأت لمساعدتي وهي التي زارت المكان ودرسته أكثر من مرة، بينما أدخله أنا للمرة الأولى؟ "لا بأس" قلت في نفسي ما دمت أنا صاحبة الاقتراح: أن يكون الفرق في التوقيت بين العبوتين خمس دقائق. يخلو المكان من الناس العاديين بعد الانفجار الأول. يأتي الجيش والمخابرات فيحصل الانفجار الثاني.

لكنهم وجدوها قبل انفجارها بثوان كما أعلنوا في الأخبار. وها أنا أدخل المكان للقول هنا وضعت العبوة التي كانت تستهدفهم. شعرت في تلك اللحظة بأسف لعدم انفجار العبوة.

كانا يراقبانني وكنت أتجول أتأمل المكان كأني أراه لأول مرة!

- أين وضعتها؟

أشرت إلى مكان ما.

- أأنت متأكدة من أنه المكان بالضبط؟

- نعم.

نظرا إلى بعضهما استغراباً وأعادا السؤال وقمت بتأكيده من جديد.

عودة إلى المسكوبية، وإلى المكان الذي كنت فيه. أقفل باب الغرفة عليّ وتركت وحدي.

وقفت أمام النافذة الوحيدة للغرفة، كانت تطل على الساحة المكتظة "بالبركسات". فجأة، رأيتهم يحملون رسمية بين أيديهم كما يحملون جثة ميتة! صرخت صرخة مكتومة وضربت رأسي "لقد قتلوا رسمية" قلتها في نفسي وربما بصوت مسموع. وحين دخل أحدهم بعد لحظات، صرخت في وجهه:

- قتلتم رسمية أيها المجرمون؟"

- لا، لكنها تعاني من أوجاع في البطن.

- وهل وجع البطن يجعلكم تحملونها ميتة؟

- تأكدي أنها بخير. ولم يحصل لها شيء.

- بل إنكم قتلتموها، لقد رأيتها جثة.

خرج وتركني مع مخاوفي وقلقي. "أيعقل أن تكون رسمية قد ماتت؟ لقد قتلها المجرمون". لم تعد أقدامي تحملني، جلست القرفصاء على الأرض وغطيت وجهي بكفي ورحت أجهش بالبكاء.

دخل المدعو "أبو النمر" وأنا على تلك الحالة. صرخت في وجهه:

- قتلتم رسمية، أليس هذا صحيحا؟

قال:

- لا، لم يحصل لها شيء. جئت أطمئنك إذ سمعت أنك خائفة على رسمية، إنها بخير. لقد رأيتها قبل قليل. عانت من أوجاع في البطن وأعطيناها دواء يخفف عنها.

لم أثق بقوله، رحت أحاججه:

- كان رأسها وأرجلها تتدلى كجثة وليس كمريضة! ثم لماذا يحملونها هكذا لمجرد أنها تعاني من أوجاع في البطن؟ إن ذلك غير منطقي. لقد رأيتها جثة هامدة يحملونها بين أيديهم.

كرر تأكيده أنها بخير. وقال:

- إذا رغبت في رؤيتها للاطمئنان عليها فسأجعلك تزورينها؟

وافقت بلا تردد!

لكنه لم يأخذني لزيارة رسمية، وتركت طوال ذلك اليوم. في المساء أخذوني للغرفة التي رأيت فيها رسمية للمرة الأولى. كان يجلس خلف الطاولة الشخص الذي أحضرت له رسالة من عمان قبل أشهر قليلة، وكان قبل أيام قد طلب مني تزويده ببعض المتفجرات.

سألوه إن كنت المعنية. فأجابهم بالإيجاب. سألوني عنه فأنكرت معرفتي به وحدجته بنظرة احتقار أخفض رأسه على أثرها. أعادوني

إلى مكاني السابق وتركت هناك طوال الليل وحدي يسكنني الغضب والخوف؛ الغضب من الرفيق الذي تعرّف عليّ ولا أعرف بماذا اعترف. والخوف على رسمية من أن تكون قد ماتت فعلاً.

في اليوم التالي جاء أبو النمر ليخبرني أنه قام بترتيب زيارة لي للاطمئنان على رسمية والتأكد من أنها بخير.

اعتقدت أن اللقاء هدفه طمأنتي على رسمية! كم كنت ساذجة في تفكيري!

في الغرفة التي رأيتها فيها المرة الأولى، كانت تجلس على الكرسي نفسه وخلف الطاولة نفسها. لكن رسمية اليوم ليست كما رأيتها في المرة الأولى. كان الإرهاق والإعياء واضحين عليها. جلست قبالتها. تركونا وحدنا. استغربنا ذلك. وقلنا لا بد من وجود مسجل في الغرفة. حاولنا البحث عنه في أدراج الطاولة وتحتها. لم نعثر على شيء. سألنا بعضنا عن الضرب والتعذيب ومدى الاعتراف. ورغم تنبهنا لاحتمال مراقبتنا أو تسجيل أحاديثنا، إلا أن ذلك لم يمنع من بعض زلات اللسان.

دام اللقاء خمس دقائق. جاء أحدهم وأخرجني قائلاً:

هل تأكدت أننا لم نقتل رسمية؟ وأنها ما زالت حية ترزق؟

لم تمض أكثر من ربع ساعة حتى أعاداني عند رسمية!

كان في الغرفة شخص ضخم أطلق على نفسه اسم "أبو هاني"، وآخر أطلق على نفسه "كولج عزرا". قال المدعو "أبو هاني" وكان يحمل عصا خشبية في يده:

يبدو أن الإنسان لا يستطيع أن يستمر طويلاً في تأنيب نفسه، لا بد أن يبحث له عن شفاعة، عن عذر، عن مبرر يعيد الاحترام والاعتبار لنفسه.

أليس إنقاذ رسمية من شلل مؤكد هو هدف سام وقيمة عليا؟ ما أهمية الخجل الذي يسببه لي تسليم أسلحة أمام تأنيب ضمير دائم إذا شلّت رسمية؟ وما قيمة بيت أو سلاح مقابل سلامة إنسان؟ أليست أمي هي التي تقول إن السلامة هي الأهم، وإن ما يمكن تعويضه ليس بخسارة حقيقية؟ ينسفون البيت؟ يمكن إعادة بنائه. يتشرد أهلي ويصبحون بلا بيت؟ ينضمون إلى جموع المشردين من شعبي، الذين هدمت بيوتهم أو طردوا منها. سيتدبرون، البيوت الفارغة في البلد عديدة. سيعيشون في أحدها. الأسلحة يمكن تعويضها. أما رسمية إذا شلت؟ فكيف ستعيش؟ كيف سأتحمل رؤيتها مشلولة؟ لا، لا أستطيع. فليذهب البيت إلى الجحيم ولتذهب الأسلحة إلى جحيم الجحيم وليس من حق أحد أن يلومني.

بقيت بين توبيخ وتبرير لنفسي حتى وصلنا البلد. شعرت بخجل كأني أقف عارية أمام الجميع. تمنيت لو شقت الأرض وابتلعتني أو لو لم أوجد على وجه هذه الأرض. أي خجل يجللني أمام أمي وأختي وزوجة أخي وأهل البلد كلهم! "إن أحداً لن يعرف ولن يدرك أن ذلك في سبيل إنقاذ إنسانة من الشلل. إن أحداً منهم لم يعرف رسمية ولم ير شكل يديها! لكني رأيتها ولا يعقل أن أتركها تشل. هل ستدرك أمي ذلك؟ وأن لا شيء يعادل فقدان إنسان لجزء من كينونته؟ فكيف لو كان لرفيقة أعرفها وأعزها وأثق بها؟ ولكن، كيف أستطيع تفسيره لأهلي؟ وكيف سأقدم على تسليم جزء من الأسلحة التي يجب أن تستخدم في نضالنا ضد الاحتلال، للمحتل نفسه؟ أي ورطة تورطت فيها؟ أي عدو هذا الذي أردت أن أكون نداً له؟

توقفت السيارات أمام البيت. نزلت من الجيب وأجلت بصري أستكشف مَنْ مِنَ الناس سيشهد ذلي وضعفي؟ تمنيت أن لا يراني أحد. لأول مرة أشعر بالخجل مما أقوم به.

مررنا من أمام البيت واتجهت نحو الأرض المحيطة دون أن أجرؤ على النظر نحو البيت كي لا تقع عيوني على أحد من الأهل. عند إحدى السناسل في أرض عمي توقفت. أردت الإشارة إلى المكان الذي خبأنا الأسلحة فيه. عندها شعرت بأن يدي توجعني إلى درجة لم أعد قادرة على رفعها والإشارة بها. حملتها باليد الأخرى ونظرت إليها، كانت منتفخة وزرقاء من عند المعصم، لم أنتبه لذلك إلا في تلك اللحظة. هل هو تحذير يتطلب مني التراجع؟ وهل يمكنني التراجع؟" خفت وجبنت أمام عواقب التراجع. لو أستطيع صياغة مخرج منطقي! هذا الدماغ لا يساعدني. إني قليلة حيلة لدرجة مؤسفة. تبالي، أورط نفسي، ثم لا أعرف كيف أخرج من ورطتي. قرأوا ما يجول بخاطري بعد أن لاحظوا ترددي. تقدم الضابط محذراً من مغبة التلاعب بهم والتراجع.

نقلوا ما استخرجوه من باطن الأرض، بينما رافقني المحقق والمجندة وجندي آخر إلى البيت بدعوى مشاهدة أمي. احتضنتني أمي وأخذت تتفقد وجهي وجسمي وهي تسأل: لماذا هذا الازرقاق عند عينك؟ وهذا الذي على خدك؟ ويدك ماذا حدث لها؟ يكسر اليد إلى امتدت عليك وضربتك. أخذت تدعو عليهم بالكسر غير آبهة بوجودهم. ماذا أقول لها؟ لو أن الأرض تنشق الآن وتبتلعني؟ لم أخجل من نفسي كما كنت في تلك اللحظة أمامها. راودتني رغبة لأن أجثو على قدميها، أطلب الصفح عما سببته وما سأسببه لها من أحزان وآلام ومتاعب. لكن الموقف لا يحتمل، سيستغلونه كما فعلوا مع الموقف من رسمية. لا، لن أكشف لهم بعد اليوم عن حقيقة نفسي. ألم يكن الأجدر بي تعلم ذلك من قبل؟

لكن، كيف للمرء أن يتعلم دون خوض التجارب؟

بعد الاعتراف تم نقلي إلى مركز التوقيف المجاور لمبنى التحقيق.

ولما كانت الزنازين مكتظة بالمعتقلين، فقد وجدوا مكاناً شاغراً في زاوية أعدت كمخزن، ملئت بفرشات وعلقت فيها معاطف وجاكيتات للشرطة، مربعة المساحة لا يتجاوز طول ضلعها طول الفرشة، معتمة، يفصلها من جهتين جداران خشبيان لا يزيد ارتفاعهما على مترين، بينما بقيت المسافة حتى السقف فارغة، ما يتيح وصول جلبة المكاتب وبعض الضوء إلى المكان.

الوقت قبل المساء بقليل. الهدوء مخيم على المكان. إحساس حاد بالمرارة يجتاحني. خليط من الأحاسيس السلبية؛ إحساس بالهزيمة وخيبة أمل من نفسي كبيرة، إحساس بالذنب تجاه أهلي. آآآه، كم كنت غبية وقليلة حيلة! انفجر في داخلي سؤال عن سوء فعلي: ما الذي فعلته؟ أردت التحدي فاعترفت عن مخزن أسلحة، تعرّض العديد مَنَ الشباب للخطر حتى وفروه، وسيؤدي الاعتراف إلى نسف البيت! وقبل ذلك اعترفت عن عملية سأحكم عليها حكماً مؤبداً؟ آآآه يا ويلتاه! ما الذي سيحصل لأمي وزوجة أخي وأختي وللأطفال؟ خبطت على رأسي وانفجر البكاء كأنه أنهار، وعلا صوت نشيجي.

بكيت كما لو أنني لن أنتهي من البكاء. ثم رحت أردد أغنية أم كلثوم:

تفيد في إيه يا ندم يا ندم

وتعمل إيه يا عذاب

طالت ليالي الألم

وتفرقوا الأحباب . . .

يزداد بكائي فأكرر الأغنية. والدمع كالنبع تجري منه الأنهار، كأني أغتسل في بحر من الدموع!

الواقع الجديد يفرض نفسه. أنا الآن في عالم آخر. مخزن صغير معتم حصتي من هذا العالم؟ وأهلي سينسف بيتهم وسيقاسون مرّ التشرد؟ لا، لا يا إلهي! لماذا هذا القدر؟ من أين خرج لنا هؤلاء القوم ليغيّروا مصائرنا ويخرّبوا حياتنا؟ كيف لي أن أضعف أمام جبروتهم؟ أنا صاحبة الحق، كيف سمحت لنفسي أن أضعف أمام الظالمين؟ كيف يضعف الحق أمام الباطل؟

أنا التي استهزأت بمن اعترف ونعتّهم بالجبناء، ها أنا أنضم إلى جمهور المعترفين والجبناء. أعترف مثلهم وأشير إلى مكان الأسلحة بيدي هذه، وأمام الناس كلهم.

تنفتح مجاري الدمع جداول (أين تكمن كل تلك الدموع؟). تنساب دموعي وأشرب ملوحتها وما زلت أردد أغنية الندم، وكلما رددت مقطع "طالت ليالي الألم. . " يعلو النشيج على الغناء حتى أصبحتُ كومة رماد، لم تعد بي طاقة لبكاء أو غناء أو تفكير أو توبيخ.

البكاء فرج، والغناء نعمة، والنوم رحمة.

مع الصباح التالي، وما زلت أفرك عيوني، كانت إرادة جديدة تنبثق من داخلي: انهضي يا عائشة، لا تسمحي لكبوتك أن تطول، ضعفتِ نعم، لكن لا تسمحي لضعفك أن يطول، انهضي واجعلي إرادتك قوية، أنت صاحبة الحق، أنت الأقوى، هم أصحاب الباطل، هم الأضعف، ما

زالت أمامك طريق طويلة لتصارعي الباطل" ، "لا تخجلي من نفسك، لم يكن بإمكانك ترك رسمية لمصير رفضته أنت لنفسك، ومن الطبيعي أن ترفضيه لرفيقتك، بل لأيّ كان من البشر. لم يكن الشلل تهديداً بل كان فعلاً يحدث، ألم أر بأم عيني كيف تقوست يداها ولم تعد قادرة على تحريكهما؟ ألم تصرخ بأن يديها قد شلتا؟

ماذا؟ أنا متهاونة في محاسبة نفسي؟

ماذا لو كان الشلل قد حصل فعلاً؟ ألن تكون الأسلحة جائزة تقدمينها لهم على ما سببوه لرفيقتك من شلل؟

رحمتك يا ربي من هذا العقل اللئيم! ينشط في الوقوف في وجهي لا في الوقوف إلى جانبي. حين احتجته في لحظات إرباكي وحيرتي، اختفى ولم يسعفني بأي فكرة أو اقتراح! ولكن فعلاً. ماذا لو كان الافتراض صحيحاً؟ أيمكن أن يكون قد حصل مكروه لرسمية؟ وتتحول المصيبة إلى عدد لا ينتهي من المصائب؟

كاد الافتراض يسبب لي حالة من الجنون. فكيف سأتحمل شلل رسمية وتسليم الأسلحة ونسف البيت والخزي الذي أصابني؟

كيف لي أن أعرف أخبار رسمية؟ سلامتها فقط كفيلة بأن تخفف العبء عن ضميري وتعيد لي احترامي لنفسي.

إذا كان اعترافك على الأسلحة تبررينه بالحفاظ على رسمية. فلماذا اعترفت على العملية؟ ألم يكن بإمكانك الصمود؟

نعم، كان ذلك ممكناً.

فلماذا اعترفت إذن؟

خفت من الجنون والشلل.

أين التنظير والكلام عن الاستعداد للتضحية لأن الاحتلال هو الأسوأ؟

شلل واحتلال في الوقت ذاته؟ جنون وشلل؟ وأمي ماذا يحصل لها إن شللت أو جننت؟ لا وألف لا، لا للجنون ولا للشلل لي أو لرسمية أو لأي كان. وألف لا للاحتلال كذلك.

آآخ يا رأسي، سينفجر رأسي بعد قليل.

لم ينفجر رأسي! وبدلاً من ذلك، أخذ يسحب أشرطة الماضي ـ الماضي القريب ـ ليدمجها في الحاضر؛ كيف ستتصرف أمي عند نسف البيت؟ ستتذكّر تحذيراتها لي:

"والله إني كنت عارفة إنهم راح ينسفوا البيت، حذرتها، بس ما ردّت هالعنيدة".

هذا صحيح، كنت عنيدة، ولكن لماذا لم أكن عنيدة في التحقيق ووقت الامتحان الحقيقي مثلما كنت مع أمي ومع أخي؟ أخي بدوره حذّرني من نسف البيت. في زيارتي الأخيرة له في عمان، طلب مني أن أُهدئ من نشاطاتي خوفاً من نسف البيت. وقلت في نفسي إنه يخاف على البيت وليس عليّ. واعتبرت تحذيره محاولة لفرض إرادته عليّ. رحت أحاججه بصيغة الرفض وقلت: ألم تجعل البيت قاعدة للعمل الفدائي يا أخي؟ ألم تستقبل الفدائيين في البيت؟ ألم تخطط معهم لضرب بعض المواقع العسكرية؟ ألم تنقلهم بسيارتك الخاصة؟ ألم تنقل الأسلحة

والجرحى منهم؟ ألم ترسل مجموعة "أبو الفدا" التي ألقي القبض عليها فيما بعد وكان من الممكن أن يتسبب اعتقال المجموعة في نسف البيت؟ ألم تشرك كل أفراد البيت حتى أمي وزوجتك في إعداد الطعام للمجموعات الفدائية؟ فلماذا تريد مني الآن تهدئة نشاطاتي؟

نسف البيت يسيطر على تفكيري. ما إن أطرده حتى يعود ويلقي بثقله على نفسي. ماذا سيكون موقف أمي، وزوجة أخي؟ أمّا أختي فأنا واثقة من تماسكها.

رحت أستحضر شريط نسف بيتها.

بعد يوم طويل من التدريس في قرية "عين يبرود" القريبة، رافقتني الطفلة الصغيرة نهلة.

ونهلة، لم تكمل السادسة من عمرها، قبلت في الصف الأول الابتدائي كمستمعة. ولسبب غير مدرك؛ تعلّقت "نهلة" بي على الرغم من أنني لا أدرّس صفّها. كانت تنتظرني كل صباح عند بوابة المدرسة، حين تلمحني، تجري نحوي، تحتضنني ثم تسير ممسكة بيدي، أو تسير أمامي قفزاً كعصفور يحاول الطيران. وحين ينتهي دوامها، تبقى في انتظاري لتسير معي حتى تصل بيتها الواقع على طريقي. ثم بدأت تلح يومياً: "يا ست عايشه، خذيني أنام عندك". أخيراً تم الترتيب مع أمها ورافقتني "نهلة" في ذلك اليوم. كادت تطير فرحاً عندما وجدت نفسها تجلس إلى جانبي في الحافلة، عبّرت عن ذلك بيديها الصغيرتين تتحسسان تقاطيع وجهي لتعود وتحتضنني وتردد: أنا بدي أنام عندك!

أخذت الحافلة تتباطأ بسيرها استعداداً للوقوف بالقرب من بيتنا، لكنها توقفت قبل ذلك. كانت سيارات جيش تسد الطريق والناس تجري

في اتجاه حارتنا! خفق قلبي سريعاً، ما الذي يجري وماذا يفعل الجنود هناك؟ وطار إلينا الخبر:

سينسفون بيت "احمد عودة".

وكان أحمد قد اعتقل منذ أسبوع.

أخذ الجيش يبعد الناس وسكان الحارة. اهتممت بالصغيرين؛ ضيفتي "نهلة" و"عودة". وبعد سماعنا صوت الانفجار عدنا إلى الحارة مسرعين. كان الغبار يتصاعد حتى عنان السماء بعد أن تحول البيت إلى كومة من ركام. كان شعوري قاسياً وغاضباً. وددت لو أفجر لهم بيوتاً كما يفجرون. كيف لهؤلاء المحتلّين، فرض إرادتهم علينا وتحويل بيوتنا إلى ركام أمام أعيننا، ثم يذهبون إلى بيوتهم كأنهم لم يفعلوا شيئا؟ أشفقت على أختي حين تقع عيناها على بيتها الذي لم يعد قائماً. ما الذي سيجري لها؟

تدفق الناس يشاهدون فعل جيش الاحتلال وما آل إليه البيت! نظر الرجال بصمت ثم استداروا وذهبوا. علا صراخ وعويل النساء من أخوات وعمات وخالات وأخريات. جالت عيوني بحثاً عن أختي، وكان قلبي معلقاً بخيط قد يهوي عند رؤيتها. ماذا يمكنني القول لها؟ ماذا علي التصرف تجاهها؟ كيف أشد أزرها وبيتها ركام وزوجها في الاعتقال ولا تعرف عنه شيئا؟

وقفتْ أختي تنظر إلى ركام البيت، لم تصرخ، لم تبكِ، لم تشق ثوبها! كانت صامتة كما فعل الرجال! هل كنت قادرة على قراءة ما يدور في ذهنها؟ استدارت نحو النساء اللواتي يصرخن ويبكين وخاطبتهن وهي تكظم غيظها: "يا نسوان، وحدن الله. ليش بتبكين على بيت بينبني من

جديد؟ الناس ما بتبكي على اشي بروح وبيرجع. الناس بتبكي عللي بروح وما بيرجع، والبيت اللي انهدم بيتي، وأنا شايفاتني مش ببكي، ومش عايزه حد يبكي. اللي عايزه تبكي تروح تبكي في بيتها ومش عندي".

قالت كلماتها الأخيرة وهي تشير بيدها كأنها تطردهن. وكأنما رشقن بماء بارد، توقفن عن البكاء، ثمّ أخذن ينسحبن واحدة تلو الأخرى. حسمت الموقف. كانت حاسمة كالسيف. حاسمة حد القسوة.

لم أرها تبكي. ولكنها دخلت غرفة وأقفلت الباب خلفها.

أحتار في شخصية أختي. كثيراً ما كنت أغار من شجاعتها وجرأتها وقدرتها على الحسم. هي كالسيف في حسمها بينما أتردد كثيرا! أجدها قاسية أحياناً، وحين نتناقش حول ذلك تتحول إلى شرسة، وتكون على استعداد للذهاب بعيداً في قسوتها. من أين جاءت بتلك الصفات؟ هي تكبرني بثلاث سنوات، حرمت من التعليم وبقيت ناقمة على ذلك. عندما كان أخي يغيب عن البيت، كانت تقوم هي بدور رجل البيت؛ تحرث الأرض وتزرعها، تحصد الزرع وتنقله على ظهر الحمير، ثم تدرسه وتذرّيه تماماً كما يفعل الرجال. أو تتفق مع من يقوم بذلك، تتابعه وتحاسبه. لم تكن لتخجل من أحد، وكانت تهاجم الخجولات متهمة إياهن بشتى التهم. تتلفظ بكلمات لم أكن أجرؤ على تلفظها! تلعن من تشاء وترفض التوبة، تضربها أمي جزاء تلك اللعنات فتزيد من عنادها وتتحداها قائلة " لستِ الله حتى تحاسبيني"، وعندما تيأس أمي منها تقول: " الهادي الله" فتعلق "يعني الله هو الذي هداني على مسبة الدين! فلماذا تعترضين على إرادة الله؟". يسقط في يد أمي فترفعها نحو السماء بدعائها: "يا رب ساعدني على هذه الكافرة!"

في صباح اليوم التالي، ذهبت إلى عملي - في عين يبرود - أوصلتُ نهلة إلى أمها وأسرعتُ إلى المدرسة. في ذاك الصباح، تأخر وصول المعلمات من رام الله بسبب حاجز عسكري طيّار. قمت بقرع الجرس، اصطفت الطالبات، أنشدنا نشيداً قومياً. أدخلت الطالبات إلى صفوفهن، استعنت بطالبات الثالث إعدادي ليتابعن الصفوف الصغيرة، ودخلت على الصف الأول إعدادي لإعطاء حصتي.

كنت أقوم بذلك وأنا أشحن إرادة التحدي في الرد على نسف البيت من قبل جيش الاحتلال.

وصلت المعلمات وسارعن إلى صفوفهن. بعد قليل تم استدعائي من قبل المديرة. كان رئيس المجلس القروي لقرية عين يبرود ووالدا نهلة في انتظاري. بادرتني المديرة بالسؤال:

- هل الأخبار التي سمعناها من نهلة صحيحة؟

- أية أخبار؟

- نسف بيت عندكم؟

أخذ والدا نهلة بطرح الأسئلة التفصيلية. كانت نهلة قد نقلت لهم التفاصيل بكل دقائقها، كانت عينها عدسة التقطت كل التفاصيل. وكان لها ذاكرة مذهلة، فأعادت الكلام.

نهله لم تعد تسألني الذهاب معي، لكنها تريد مني النوم في بيتهم!

رحت أفكر في نهلة، ماذا سيجري لها حين تعلم عن اعتقالي؟ هل تفهم معنى الاعتقال؟ وددت لو أضمها ولكن "طالت ليالي الألم وتفرقوا

الأحباب . . " وأمطرت دموعي من جديد .

هل أصبح الدمع رفيقاً لي؟

لا يا عائشة : الضربات التي لا تميتني ، تقويني . تماسكي وانهضي من جديد . وخذي عهدا أن لا تضعفي بعد اليوم .

في ساعات ما بعد الظهر ، تم استدعائي لمبنى التحقيق .

كنت قد تماسكت تماماً ، وبي رغبة في المواجهة . أريد أن أضع إرادتي موضع التنفيذ : "لا ضعف بعد اليوم" هذا ما قررته مع نفسي .

الغرفة الواسعة نفسها التي كسرت زجاج مكتبها . جلس خلف مكتبها ضابط عسكري ، شاراته التي اعتلت كتفه تدلّ على مركز رفيع . حرّك يده باحترام ، مشيراً لي بالجلوس على كرسي قبالته . نظر إليّ بتمعن ، ربما لدقيقة قبل أن يبدأ حديثه قائلاً :

- اطلعتُ على إفادتك ، وفهمت أنك تريدين مقاومة الاحتلال ، هذا جيد . لكن ، لماذا تلجأون إلى العمليات الإرهابية وتقدمون على قتل الأطفال؟

ارتبكت قليلاً أمام الطرح . ثم سارعت بالقول :

- لم أسمع أن الذين قتلوا كانوا أطفالاً .

لم يكن صوتي حيادياً ، إنما كان مشحوناً بالتحدي . أحسست أن الجواب ضعيف وغير كاف . أردت التأكيد لنفسي أنني لن أضعف أمامهم ، فبادرت في الهجوم :

- تعترض على عمليات إرهابية؟ ألست من دولة قامت على الإرهاب؟

حافظ على لهجته الهادئة وقال:

- لم نكن نقوم بعمليات إرهابية. كنّا نقوم بعمليات ضد أهداف عسكرية.

تابعت هجومي:

- وهل قرية "دير ياسين" كانت ثكنة عسكرية وكان أطفالها ونساؤها جنوداً؟

قال وما زال محافظاً على هدوئه:

- حادث دير ياسين كان خطأ في تاريخ الصهيونية ويجب أن يُنسى.

"يا لوقاحته!" قلت في نفسي وقد استفزني جوابه وهدوؤه فأصبحت أكثر حدة:

- "دير ياسين" كانت مذبحة لا حادثاً. أنت تريد أن تنساها! نحن لن ننساها، والتاريخ لن ينساها.

- لقد حاكمنا الذين أقدموا على حادث دير ياسين.

"ما زال مصمماً على تسميتها حادثاً" قلت ذلك في نفسي وأكملت هجومي:

- لهذا السبب فإن "مناحيم بيجن" مسؤول مذبحة دير ياسين هو وزير

في حكومتكم؟ ولهذا السبب أيضاً أقدمتم على مذبحة كفر قاسم عندما أصبحتم دولة؟ أم أن عمال كفر قاسم العائدين من عملهم إلى بيوتهم كانوا جنوداً مسلحين؟

"إن منطقه ضعيف" . قلت ذلك في نفسي . أكان يتوقع هذا الهجوم؟ هل اعتقد أن شاراته العسكرية تضمن له تفوقاً؟ ألا يدرك أن الحق أقوى؟

تمهل قليلاً قبل أن يستأنف :

ـ تلك أحداث في الماضي، وعلينا أن نتحدث عن الحاضر، فأنتم العرب ضعفاء عسكرياً، ولكنكم أقوياء سياسياً، وأفضل لكم أن تعملوا عن طريق السياسة، لأن عملكم العسكري عمل عبثي، فأنتم غير قادرين على التغلب علينا .

يهرب من موقع ضعفهم إلى موقع قوتهم . كان ضعفنا العسكري أمام قوتهم يؤلم حتى النخاع، أرفض هذه العجرفة . إنه يعطي لنفسه حق تحديد وسائل نضالنا، إنه وقح رغم ثوب الدماثة التي يلبسها .

قلت :

– وسائل نضالنا نحددها نحن، والعمل السياسي هو ثمرة العمل العسكري . (إحدى الكليشيهات التي كنت أحفظها) .

– لكنكم لا تعرفون كيف تعملون عسكرياً . ها نحن نلقي القبض على خليتكم بعد أسبوع من عملكم . أما نحن، فكنا أذكياء . كنا نقوم بالعمليات فلا يتم إلقاء القبض علينا لا بعد أسبوع ولا بعد سنة . فبماذا تفسرين ذلك؟

ارتبكت حين ذكر القبض علينا بعد أسبوع من قيامنا بالعملية ولم أعرف كيف أرد عليه بمنطق يتفوق على منطقه. فقلت "حظ". ثم لمعت في ذهني أسباب جدية فاستأنفت حديثي:

- ظروفكم كانت تختلف. كانت لكم قواعد تتدربون فيها وتتسلحون منها في ظل حماية الانتداب البريطاني. فأين لنا مثل تلك الظروف؟

- هذا غير صحيح. لأن نضالنا كان ضد الانتداب البريطاني.

ما زال هذا الرجل يصر على تزوير التاريخ وتفصيله حسب رغبته، يدعي الحرب ضد الانتداب البريطاني في الوقت الذي جاء الانتداب البريطاني لضمان تحويل فلسطين وطناً قومياً لهم. كيف له أن لا يخجل من تزويره للتاريخ؟ كنت أقول ذلك في نفسي.

رددت عليه كأنما ألقي القبض عليه بسبب تزويره للتاريخ:

- لست جاهلة للتاريخ. الانتداب البريطاني كانت مهمته الرئيسية مساعدتكم في جعل فلسطين وطناً قومياً لكم. أم نسيت (وعد بلفور)؟

أطرق قليلاً دون أن يظهر ضيقاً من النقاش، بل حافظ على هدوئه الظاهر.

رفع رأسه وقال:

- عليك أن تفكري مرة أخرى بعبثية أعمالكم. فماذا تستطيع أن تفعل قنبلتك في دولة إسرائيل القوية التي هزمت كل الجيوش العربية في ستة أيام؟

مرة أخرى يعود إلى موضوع تفوقهم. كانت بي رغبة بحجم العالم لإلحاق الهزيمة بهم وإنهاء تلك العجرفة المقيتة. فقلت وأنا أشحن كلماتي بتلك الرغبة:

- صحيح أن قنبلتي وحدها لن تستطيع عمل شيء في دولتكم القوية. ولكن هل تستطيع دولتكم أن تتحمل قنبلة من كل واحد من أبناء شعبنا؟

انتفض كالملسوع. بدت الحدة في صوته وتعابير وجهه وحركة جسده. سررت لذلك التغير الذي لمسته، وقلت في نفسي: "نجحت في تجريده من لبوس الدماثة والهدوء".

قال كأنما يريد حسم معركة:

- لن نسمح بهذا. ونحن نعمل كي نمنع أي فرد منكم من حمل قنبلته.

وقف معلنا انتهاء المقابلة، ومد يده مصافحاً.

قلت في نفسي "يعني أن معادلتي الجديدة (قنبلة من كل فلسطيني لمواجهة الدولة القوية المتعجرفة) هي المعادلة الصحيحة في مواجهة قوتهم وعجرفتهم". رغبت في أن أصفق لنفسي مهنئة لها وأقول لها: "لقد كنت أهلاً لقضيتك يا عائشة".

خرجت من تلك المقابلة والأسئلة تتلاحق في رأسي. لقد عادت لي ثقتي بنفسي. ها أنا أواجههم وأكشف زيفهم في عقر دارهم. لا بأس يا عائشة؛ للاعتراف فضيلة الدفاع عن الحق بأعلى الصوت ومن دون حسابات.

لكن من كان ذاك الضابط الكبير؟ أيمكن أن يكون الحاكم العسكري؟

(نعم، كان هو الحاكم العسكري في رام الله، ذهب في اليوم التالي مشرفاً على نسف البيت، وقال لأمي: بنتك عايزة تكون فدائية. فردت أمي: ("بشرّفني وبرفع راسي").

في مساء ذات اليوم تم استدعائي للتحقيق مرة أخرى.

وضعت في إحدى الغرف في (البركسات). دقائق ودخل اثنان، أحدهما يحمل أوراقاً في يده. بادر الثاني في الكلام:

- هل تعرفين أنك ستحكمين حكما مؤبداً؟

- أعرف!

- هل تعرفين أنه يمكنك تخفيف الحكم؟

- كيف؟

- الأمر بسيط!

توقعت أنه سيعرض عليّ التعامل معهم فهيأت نفسي للرد. أكمل:

- هل تعرفين خطورة ما كتبته؟ إن حديثك عن الاحتلال وواجب مقاومته واستشهادك بمقاومة فرنسا والاتحاد السوفييتي للاحتلال النازي أمر في غاية الخطورة. أنصحك بأن تقولي إنه غرر بك، أو أن أحداً دفع لك نقوداً لتقومي بوضع القنبلة. إن قولاً من هذا القبيل سيخفف عنك كثيراً.

"ما أوقحهم!" قلت في نفسي. "يريدون تجريدنا من إرادة المقاومة!"

كان ردّي سريعاً:

- إذن كيف وصلت الى هناك؟

- ركبت سيارة أجرة.

- هل تعرفين سائقها؟

- كيف لي أن أعرف سائق سيارة كان يمر بالشارع؟

- لكننا نعتقد أنك لست من وضع العبوة. وأنك تعترفين على نفسك لتحمي غيرك. فمن هم الذين تتسترين عليهم وتحمينهم؟

مرة أخرى يتحدثون عن آخرين. ارتفع مستوى تأهبي الداخلي. "يودون جري للحديث عن غيري، ويستكثرون علي فعل المقاومة". تولدت عندي رغبة للتحدي. كانت رغبة غامضة لكنها جامحة. قلت وكأني ألقي قنبلة في وجهه:

- أنا التي وضعت القنبلة!

- أنت غبية

قالها مع صفعة قوية على وجهي كأنما صدم من جوابي. بدا مستفزا. شعرت أن قوة الصفعة تعبر عن قوة جوابي. كان تأكيدي على وضع القنبلة تأكيدا على حق المقاومة!

إحساسي الداخلي في تلك اللحظة كان أهم عندي من الإحساس الذي رافقني أثناء وضعي للقنبلة. التحدي وجهاً لوجه يشعر بالقوة، ربما ليس شعوراً بالقوة، وإنما شعور آخر أجمل، شعور بقوة الحق، بالكبرياء. أذكر الشعور الذي انتابني بعد وضعي القنبلة، انتابني شعور

بالضعف! ثم أصبت باضطراب. كنت أود لو خضت معركة مواجهة، للمواجهة طعم آخر. لماذا لم أقم بعملية فيها مواجهة بدلاً من وضع عبوة والانسلال بعدها كسارق؟

ها أنا أكتب بعد ٣٣ سنة، لأكتشف أنني لم أتحدث عن وضعي للقنبلة بأريحية قط! كثيرون هم الذين طلبوا مني الحديث عن ذلك الفعل البطولي كما يرونه، لكنني لم أفعل. ما زلت أذكر مرة كنت مدعوة ورئيسة الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية السيدة "عصام عبد الهادي" للتحدث أمام طالبات معهد الوكالة في ناعور في عمان. سألتني الطالبات أن أحدثهن عن تفاصيل العملية. وجدت نفسي مربكة بين ما تريده الطالبات وبين عدم اعتباري لها بطولة! فقلت باختصار "لا شيء يذكر، الأساس أن يأخذ الإنسان القرار". انتظرت الطالبات المزيد من الحديث، اضطررت أن أتكلم عن أهمية القرار الذي إليه ترجع كل أهمية لأي عمل. لا شك أن كلامي ذاك شكّل صدمة لهن ولمضيفتي، وربما للسّيدة "عصام عبد الهادي".

كنت راغبة في مواجهتهم. التأكيد على وضعي للقنبلة يزودّني بالإحساس الذي افتقدته حين وضعتها؛ إحساس التحدي والمواجهة. "لست بريئة من مقاومتهم ولا أرغب في تلك البراءة التي تحولني إلى إنسان لا موقف له من الاحتلال، وإنما يسأل عن سلامة رأسه". الاعتراف بفعل المقاومة يحررني من الخوف. سأتحداهم ومستعدة لدفع الثمن. سأبقى شوكة في عيونهم. كنت أقول ذلك في نفسي.

لم يستسغ تأكيدي على وضع القنبلة، فصفعني وأخذ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً مرات عدة. ثم استدار نحوي وقال:

- فعلا أنت غبية. كيف تفقدين حريتك من أجل غيرك؟

- شعبي كله فاقد لحريته.

كان من الواضح أنه أسقط في يده. صفعني صفعة وقال:

- أنت غبية وحمارة. لازم تخمجي في السجن. ثم خرج.

حضر جندي ومجندة وأعاداني إلى حيث كنت في المخزن الصغير في التوقيف. هناك بدأت أقيم موقفي في مواجهات ذلك اليوم.

كنت راضية عن نفسي في المواجهة الأولى. لدرجة أني بدأت أغفر لنفسي ضعفها السابق. أما حول المواجهة الثانية، فأخذت أتساءل:

هل كانت فرصة لي للتخلص من الاعتراف بالعملية؟

لماذا أكدت على قيامي بها؟

وإذا كانت التفاصيل لا تثبت قيامي بالعملية، ألا يعني ذلك أن غياب التفاصيل سيساعدني في المحكمة؟

هل كان موقفي غباء أم ذكاء، أم حكمة في إغلاق الباب في وجوههم؟

مرّ يومان كاملان دون أن أستدعى أو أسأل شيئاً. هل ألقي بي في غياهب الجب؟ تساءلت في نفسي.

كان العزل عندي أقسى من الضرب. قلت إن الضرب شكل من أشكال المواجهة حتى لو كانت قاسية وعنيفة، أنت فيه موجود ومركز الحدث. في العزل أنت غائب وغير موجود.

هل سيطول العزل؟ كيف سأواجهه؟ ماذا أفعل في هذا الزمن بطيء الخطو كديناصور؟

كنت استذكرت الأشعار التي أحفظها: أشعار محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وعبد الرحيم محمود وفدوى طوقان وإبراهيم طوقان وأبي سلمى وأبي القاسم الشابي وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي والمتنبي وامرؤَ القيس والشنفرى والشعراء الصعاليك. . . الخ.

"سأكتب على الحائط".

لمعت الفكرة في رأسي.

بحثت عن أداة للكتابة، وجدت (بكلة) في شعري. حسناً، سأحفر بها على الحائط. رسمت شجرة قصت فروعها وأنبتت فرعاً جديداً وكتبت تحتها:

"ستنبت فروعاً يانعة ما دامت جذورها حية وعميقة في الأرض".

أعجبتني. رحت أتأمل وأحاور.

تحوّل الحائط إلى كائنٍ يشاركني المكان والزمان والأحداث. أصبح يحاورني. كان اكتشافاً عظيماً.

تولدت فكرة جديدة في رأسي. "سأرسمها على الواجهة الخشبية".

الخشب المضغوط غير قابل للحفر. "لا بأس، أحفرها على الواجهة الثانية من الحائط فوق (ركسة) الفرشات".

اعتليت (ركسة) الفرشات وفي المساحة الظاهرة فوقها حفرت سفينة تواجه أمواجاً عاتية وكتبت تحتها :

"ستصل بسلام إلى شاطئ الأمان" .

يا سلام! اتسع المكان! فيه الآن شجرة وسفينة وبحر! أحتاج لشمس تضيء المكان . رسمت شمساً خلف غيوم وكتبت :

"ستشرق الشمس وتتبدد الغيوم" .

كتبت أبياتا شعرية لمحمود درويش :

سدّوا عليّ النور في زنزانة فتوهجت في القلب شمس مشاعلي

كتبوا على الجدران رقم بطاقتي فنمى على الجدران مرج سنابلي

ثم كتبت مقطعاً من قصيدة لتوفيق زياد :

"هنا على صدوركم باقون كالجدار

وفي حلوقكم كقطعة الصبار كالزجاج"

امتلأت الجدران . لم تعد جدراناً . هي الآن كتاب وعوالم تتسع . والبكلة صارت صديقة عزيزة .

ويتشقق الجدار

الجلبة في المكاتب في فترة النهار كانت تزودني بإحساس بأني ما زلت على اتصال ما بحركة الحياة. لكن ذلك اليوم ساده هدوء كامل رغم أنه السبت بداية الأسبوع! (لم أكن أدرك بعد أن السبت هو يوم عطلتهم الأسبوعية).

الوقت عصراً.

إشارة الوقت من إذاعة صوت إسرائيل انطلقت فجأة وأشارت إلى الثالثة والنصف. ثم موسيقى نشرة الأخبار. أصخت السمع. الخبر الأول قفزت له وأخذت أدور حول نفسي أرغب في طيران ألف به الأرض وأحلق في السماء. عملية في غزة. قنبلتان يدويتان ألقيتا على مصفحة جنود فقتل جنديان وجرح آخر. قامت بإلقاء القنبلتين فتاة في السابعة عشرة من عمرها، تم إلقاء القبض عليها. الفتاة تدعى "عائدة سعد".

فكرت برسمية، لو أزف لها الخبر! لو يعرفه جميع الشباب!

لو يعرفون انبثاق عائدة!

يا سلام! فتاه وقنبلتان ودبابة إسرائيلية؟ أردت أن أدْبِك:

"هبت النارعَ روس الجبال يا عائدة سعد يا فادية البلاد"

انطلق خيالي يشكّل ما يحلو له من الصور: فتاة على ظهر فرس تطير كما يطير "سيدنا الخضر". شعرها طويل، يرفرف خلفها كراية خفاقة. تحمل في يدها علم فلسطين يرفرف فوق رأسها وتعبر به سماء فلسطين، كل فلسطين. رأيتها تعبر فوق سمائي، فلوحت لها بيدي!

خبر "عائدة" أنهى ثقل الزمن والعزل. اتسع عالمي وراح يموج بالحياة، ورحت أدير حوارات وأثبّت أفكاراً وأنقض أخرى، ونور "عائدة" يشع فيبدد العتمة من حولي.

"هل تسمع يا غسان كنفاني؟ لم نعد أقزاماً، بل أصبحنا نداً. لن يموت شعبنا. وها هي المرأة تنطلق من قمقمها مارداً، فتكنس الأفكار الشوهاء التي تمنع المرأة من الإرادة وتلصق بها العجز وسبب الهزائم. فأين أنتم أيها المنظرون العاجزون؟ خير لكم أن تلقوا بتنظيراتكم القاصرة وتنطلقوا لتلحقوا بركب "عائدة". أفقن أيتها النساء وثقن بأنفسكن. ها هي عائدة تضيء مشاعلها وتنطلق مفجرة إرادتها قنابل على رؤوس جنود الاحتلال، تفجرها إرادة جبارة في شعبنا نساءً ورجالا".

انتبهت لنفسي أتحدث كما لو كنت ألقي خطاباً أمام جمهور من النساء والرجال، أو في اجتماع لخلايا تنظيمية أو في نقاشات كثيراً ما كانت تحصل بين مؤيد لتفعيل دور النساء في المجتمع ومتمسك بمظاهر تخلفهن كقيم ثابتة لا يجوز المساس بها.

في صيف العام ٦٤ شاركت في حملة تنسيب للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية في قريتنا. حضرت صديقاتي وزميلاتي (روضة الفرخ، سلافة البرغوثي، فاطمة الرمحي، وكنّا ما زلنا ننتظر نتائج التوجيهي). تحدثنا مع النساء عن تأسيس اتحاد عام للمرأة الفلسطينية. تحمست النساء ولمعت عيونهن بالأمل، اكتست وجوههن حيوية غير مألوفة، تدفقت كلماتهن بتلقائية وحميمية. هذه تعلن عن استعدادها للطبخ لكتيبة، وأخرى تريد أن تكون ممرضة، وثالثة تريد حمل السلاح ونقل الرسائل. الكل يحلم بالمشاركة في تحرير فلسطين. زاد حماسهن عند الحديث عن برامج الإتحاد في مكافحة الأمية وتعليم الخياطة والتفصيل والإسعافات الأولية.

انتسب للاتحاد في ذلك اليوم، اثنان وعشرون امرأة.

في اليوم التالي، تقاطرت النسوة واحدة إثر الأخرى إلى بيتنا. طلبن شطب أسمائهن من الاتحاد. جئن منكسرات، اختفت حيوية الأمس من الوجوه والعيون. الأسباب كانت متشابهة: أخي، أبي، زوجي، ابن عمي لا يريد، ثم تضيف مبررة أو معتذرة: "لا أريد أن أتسبب لأي منهم بالسجن أو الرفض من العمل". وعلّق جار كان يسكن في بيتنا وتحلو له المحاججة: ألم تقتنعي بعد بأن النساء لسن أهلاً للمسؤولية؟ الرجال يفكرون قبل أن يقرروا، وإذا قرروا يلتزمون، أما النساء، الله يبعثْلهن (باستهزاء) لا تفكير ولا التزام! لهذا لا يركن إليهن!

ها هي عائدة تشقق جدار الحصار وتُدْخِل النور إلى الأعماق. فمن يجرؤ على الاستهزاء بها؟

خبر عملية عائدة أدخلني في حالة من الإشراق، أطلقت عليها "حالة عائدة".

في مساء ذلك اليوم، حضر رجلان، أحدهما بلباس عسكري والآخر بلباس مدني وأخذاني إلى مبنى التحقيق. قلت في نفسي "إنها فرصة لأرى تعابير الوجوه بعد قنابل عائدة".

خاوياً كان مبنى التحقيق. لا صوت فيه ولا حركة. "أين اختفى الجلادون؟ روح "عائدة" طردتهم؟ أم خرجوا لاعتقال العشرات من الأبرياء؟". كنت أحدّث بذلك نفسي.

في الطابق الأرضي، كانت غرفة واسعة تتوسطها طاولة يحيط بها عدد كبير من الكراسي. كان يذرعها شخص واحد فقط. عاد الجندي من على الباب، بينما دخل ذو اللباس المدني وتحدث مع الذي يذرع الغرفة قليلاً ثم غادر. اتكأ الشخص الذي كان في المكان بإحدى يديه على الطاولة، يده الأخرى وضعها على خاصرته. أخذ يتفحصني من رأسي إلى أخمص قدمي. وتساءلت في نفسي عما كان يفكّر؟ "أمتفاجئ من فتيات فلسطين أم خائف منهن؟"

عدّل وقفته وطلب مني الجلوس على كرسي فجلست.

اقترب مني وأسند نفسه إلى حافة الطاولة قبالتي وقال:

ـ أنت شرموطة، وأنت تعرفين ذلك.

قلت: لا، أنا لست كذلك.

قال: أنا أقول ذلك، وأنت شرموطة بدماغك، أما الشرموطة بجسدها فهي أشرف منك ألف مرة.

قال ذلك ولكزني في رأسي، كأنما يود النفاذ إلى دماغي مؤكدا: هذا

الدماغ شرموط، ولذلك فأنت شرموطة، وأريدك ترديد "أنا شرموطة" عشر مرات.

ـ لن أقول ولن أردد.

قلتها مؤكدة وما زالت صورة عائدة مسيطرة.

ـ أنا آمرك وعليك الطاعة!

ـ تستطيع أن تأمر، ولكن لا تستطيع إجباري على طاعتك.

ـ هل ترين كم هو دماغك شرموط؟

اعتلى الطاولة أمامي وجلس عليها واضعاً قدميه على جانبي الكرسي الذي أجلس عليه محاصراً إيّاي بساقيه وركبتيه. أمسك بشعري المربوط كذنب فرس. شد رأسي إلى الخلف، ثم بدأ يصفعني على وجهي، وبين فينة وأخرى يبدل وضع يديه، معلناً أنه يتوقف عن صفعي فقط عندما أردد جملة "أنا شرموطة" عشر مرات!

وجهي المشدود إلى الأعلى، ساعد خيالي في الانشغال بصور "عائدة". تصورتها تحلق في سماء القدس مشعة كنور الأنبياء، مغردة كطير سنونو، وربما نسيت ما ألقاه من صفع أو حتى من قول آخر!

بعد فترة من الزمن، أُحضرت له كاس من الشاي، تركني ونزل عن الطاولة وأخذ يجوب الغرفة. شرب الشاي، ثم عاد واعتلى الطاولة كما كان من قبل. أخذ يصفعني من جديد، وفي الحقيقة كانت صفعاته هذه المرة غير قوية، وإنما كانت مستمرة وبانتظام.

توقف عن الصفع قليلاً، وبقي شاداً لشعري إلى الخلف، كأنما لا يعرف ما يريد.

فاجأته بسؤال:

- يبدو أن تعذيب الناس هواية تسعدك؟

ردّ بانفعال واضح: لا.

نزل عن الطاولة وأخذ يجوب الغرفة من جديد. ثم، تقدم مني وسألني:

- كم عدد الرجال الذين نمت معهم؟

كان سؤاله كأنما يقول كم عدد الوجبات التي تتناولينها في اليوم. كأن الأمر حتمي وعادي. أجبت بدوري بشكل تلقائي أن لا أحد. فأبدى تعجباً شديداً كأنما أقول شيئاً خارقاً للعادة. فتح عيونه بتعجب شديد وقال:

- أتريدين أن تقولي أنك ما زلت عذراء؟!

لمع في عيونه بريق أخافني. تصورت أنه سيهجم علي ويغتصبني. ارتعبت. رعب لم يسبق أن عرفته من قبل (ولا من بعد). رعب عصف بكل مفردة من مفردات وجودي، ونبع من أعماق أخرى غير تلك التي كانت تنبع منها ألوان الخوف الأخرى. زمجرت نظرته كعاصفة مجنونة تنذر بخلع الأشجار من جذورها. كان رعب يصيب لبّ وجودي! يا للهول من الفكرة المجنونة.

في تلك اللحظات بالذات، دخل الجندي الذي أحضرني. أحسست

بالانفراج وقل توتري، تمنيت ألا يتركنا الجندي، ورغبت في العودة إلى زاويتي المعتمة في لحظتها.

قال وقد أسقط في يده:

- هذه ليست ليلتك. عودي الآن إلى حيث كنت. غداً سيكون يومك. سيتم سلخ جلدك عن لحمك.

تنفست الصعداء وسرت مع الجندي.

صفع الهواء البارد وجهي، فاشتعل ناراً من الألم.

كنت منهكة وأردت النوم، لكن ملامسة وجهي أو رأسي للمخدة كانت عذاباً لم أقوَ على تحمله. ماذا أفعل؟

جالسة نمت. وكثيراً ما صحوت؛ كلما ثقل رأسي ومال جانبا أو سقط على صدري صحوت وتلمست وجع عنقي الذي ابتلي بحمل رأسي. أحاول النوم على المخدة فلا أقوى، فأستمر في محاولة النوم جالسة.

أيعقل أن أصفع مساء كاملاً من أجل ترديد جملة سخيفة؟

احترت في فهم ذلك، وبررت أن شيئاً من الجنون أصابهم من فعل "عائدة" ودلالاته. لكن الأسئلة لم تخفت: ما شأنهم بموضوع شديد الخصوصية؟ ولماذا أجبت عن أسئلته ولم أغلق الباب بوجهه بشكل حازم؟ لماذا لم أقل بحزم واضح: أن نومي أو عدم نومي مع أحد شيء لا يعنيكم ولا يحق لكم طرح هذا السؤال؟

لم يكن بمقدوري في حينها التفكير بمثل هذا الحزم حول الموضوع نفسه،

فقد تفتح وعيي منذ طفولتي وانغرس في أعماق روحي أن هذا الأمر ليس شأناً خاصاً أبدا، إنّما هو أمر يعني الجميع على الإطلاق، وأن مجتمعنا يستطيع غفران كل شيء، إلا أن تفقد الفتاة عذريتها، وأن الخوف على الفتاة من مثل هذا (العار الذي لا يغسله إلا دمها يراق بأيدي رجالها) هو الذي يقف وراء تقييد حركة الفتاة في المجتمع وحرمانها من المشاركة الواسعة في الحياة. أدركت المعادلة منذ طفولتي وصغت حلّها: أحفظ للمجتمع قيمه (وكان ذلك يعني في وعيي ووعي المجتمع، تقديم صفحتي ناصعة البياض في كل لحظة)، ومقابل ذلك أكسب حريتي. كان من الطبيعي ومن المفروغ منه الحفاظ على تلك الصفحة نظيفة ناصعة أمام الأعداء كذلك، كونهم يتصيدون تلك الفرص، للقضاء على مشاركة الفتيات في حركة المقاومة، من خلال إطلاق الإشاعات التي تثير مخاوف المجتمع وتفعّل المزيد من قيوده.

وكانت الليلة التالية.

كان الوقت مساءً حين قَدِمَ جندي وجندية وأخذاني إلى التحقيق.

كان الجو بارداً وعاصفاً حين عبرنا المسافة الفاصلة بين مبنى التوقيف ومبنى التحقيق. داخل بناية التحقيق كان أكثر عصفاً؛ صرخات الألم والاستغاثة تصدر من كل مكان، أصوات سياط، مسبات، تهديد ووعيد. أشخاص يخرجون مسرعين وآخرون يدخلون جرياً. وجوه المحققين، مكفهّرة، تنذر بغضب وقسوة بلا حدود. إنه كيوم الحشر!

أمر أحدهم بإدخالي إلى إحدى الغرف مشيراً إليها بيده. كان أمره كصلية رشاش. لفني الرعب وارتعدت كمقرور، صعب تنفسي، يبدو أن الهواء قد أفرغ وحلّ مكانه خوف ورعب بدأت أتنفسهما

وتيقنت أن روحي زاهقة الليلة لا مفر، وأن اسمي قد أدخل إلى قائمة الشهداء.

برقت أمامي روح الشهيدة شادية أبو غزالة. كانت تستقبلني في عالم الشهادة. هل نعود رفيقتين يا شادية؟ أخذت أخاطبها في سري وأنأى بروحي عن تلك الأجواء المرعبة حتى الموت!

دُفِعْتُ حتى كدت أقع أرضاً. غرفة واسعة يقف في وسطها شخصان يحمل كل منهما سوطاً. تقدما نحوي وسحباني كما تسحب الذئاب فريستها. أمسك أحدهما برقبتي من الأمام وضغط عليها بينما أخذ الآخر يقرأ من ورقة تهما مرقمة. عشر تهم: مسؤولة التنظيم النسائي في الجبهة الشعبية، مسؤولة بشكل مباشر عن مجموعات من الخلايا التخريبية، تنظيم العشرات من المخربين، إرسالهم للتدريب للقيام بعمليات تخريبية، مشاركة في عمليات تخريبية أخرى، وجود أسلحة، تزويد مخربين آخرين بالأسلحة والمتفجرات، كتابة منشورات تحريضية، توزيع المنشورات التحريضية للقيام بأعمال مخلة بالنظام. القيام بالاتصال ونقل الرسائل من وإلى المخربين.

أنهى تلاوة قائمة التهم، ثم طلب الاعتراف بها جميعاً وبتفاصيلها.

ضوء أحمر كان يبرق في وعيي:

"يستحيل أن أتسبب في إحضار أي كان إلى هذا المكان الجهنمي". "لن يحصلوا على أية تفاصيل مني بعدً الآن".

كان القرار ناصع الوضوح، أخرجني من دائرة الخوف إلى دائرة التحدي. استبسلت، وإرادتي كانت مطلقة، وأصبح لصمودي معنى.

واجتاحتني رغبة في التكفير عن خطيئتي في الاعترافات الأولى.

"لا، لن يحصلوا على أية تفاصيل مهما صغرت بعد الآن".

كتل من الرمال تنهال فوقي فتغمرني، انهالت السياط على جسدي وغمرته. "لتطهر هذه السياط روحي كما يطهر الجرح بالنار". وقعت مغشياً عليّ. سطل من الماء البارد صُبّ على وجهي، دخل أنفي وكدت أختنق، موجة من السعال انتابتني. استأنفوا جَلْدي حتى وقعت من جديد مغشياً عليّ. من جديد صبّ الماء وعاد الجلد، وهكذا دواليك. كمجنونين كانا يجلدانني، لا شيء غير الجنون كان حاضراً وما غير ذلك كان غائباً! هل يحصل أن تعصف في منطقة ما، في وقت ما، حالة من الجنون كتلك التي كانت قائمة في تلك الليلة؟ لا وصف عندي لتلك الليلة غير الجنون.

وأصبت بدوري بحالة الجنون! أصرخ، أتلوى من الوجع اللاهب كسياط من نار، ولا جدوى! وكما تهجم وحوش على فريستها فلا تعنيها صرخات تلك الفريسة وأوجاعها، كان هجومهم، وكنت الفريسة التي يمزق لحمها ولا مفر! كل شيء كان وحشياً حتى منتهاه.

قررا ربط قدميّ وتثبيتهما إلى الأعلى. تخصص أحدهما بالجلد على قدمي ودعس الثاني على صدري. لم يكن جلدهما مجرد جلد، وإنما كان عصفاً وزمجرة. أنتهت طاقتي، لم يعد بمقدوري الصراخ، ولم تعد قدماي جزءاً مني.

ربما تعباً!

فكّا رباط قدميّ وأوقفاني، فلم أستطع الوقوف. قدماي كانتا كحبات من البندورة الناضجة. أخذا يجرانني كما يجرّ المفترس فريسته.

صعدا بي على درج نحو طوابق أعلى. وعبْر ممر طويل، سحباني حتى نهايته. كانت أصوات ضرب وتأوهات واستغاثات وصرخات ألم، تُزوبع في كل مكان وتتوحد لتشكل فيضانا من العُسف، كفيلاً بغمر الكرة الأرضية كلها.

ألقيا بي في غرفة عند نهاية الممر ومن على جهته اليمنى. صفقا الباب خلفهما وذهبا.

ملقاة على الأرض بلا قدرة على الحركة، كنت. شاب يميل للقصر، نحيف، ذو بشرة سمراء وشعر أجعد، كان يجلس على كرسي بالقرب من باب جانبي يؤدي إلى غرفة مجاورة، وقف بجانبه آخر حاملاً سوطاً، كما لم ينتبها لوجودي. وقف الجالس وابتعد عن الكرسي، خبط الآخر بسوطه على الكرسي، صرخ الأول بصوت عالٍ متألما كأنما تلقى الضربة على جسده! كانا يمسرحان! كررا العمل عدة مرات. صرخ حامل السوط بالشاب الأول بصوت عال: "اعترف، من نظمك؟"! يتوشوشان ثم يعاودان الكرة مرات عدة دون أن ألحظ أنهما متنبهان لوجودي!

صرخات وأصوات ضرب وتعذيب تأتي من كل مكان. أطل الشاب الذي كان يصرخ برأسه على الغرفة المجاورة وهو يشير بيده ويكرر: "هذا هو الذي نظمني، إنه هو"! قال ذلك وخرج من الغرفة بينما قفز حامل السوط إلى الغرفة المجاورة التي علت منها أصوات جلد السياط والصراخ: "ها هم يعترفون عليك أيها الكلب، فإلى متى ستبقى صامدا؟".

كيف يمكن فصل الحقائق عن الأكاذيب في هذا العالم الوحشي والمجنون؟

فتح باب آخر على يسار الغرفة، كان يخرج منه شخص يسحب ثقلاً.

تسارعت دقات قلبي! تحسست الأرض للتأكد من أن ما أراه ليس كابوساً حين تبينت أنه كان يسحب جثة، كانت الجثة لـ "يعقوب عودة". رأيته جثة هامدة. "لقد قتلوه!". صرختها في نفسي.

سحبوا الجثة خارج الغرفة نحو الممر. عاد من كان يسحب الجثة منتصب القامة منتشياً، كأنما يهم بالرقص. كان فاره الطول، ذا وجه صفراوي كالموت، يضع نظارتين دون إطار، خلفهما عينان سوداوان حادتا النظرة كمخلب نسر. تقدّم نحوي مثل "عزرائيل"، قابض الأرواح. سحبني إلى الغرفة التي أخرج منها جثة يعقوب للتو.

"جاء دوري" قلت في نفسي، وتيقنت أني هالكة الليلة لا محالة! "إذا كان لا بد من الموت، فموتي بشرف يا عائشة" "لن أنطق بحرف، لن يأتي أحد عن طريقي إلى هذا الجنون، لن أدع إرادتهم تنتصر".

كنت أستعد للموت.

الغرفة جرداء، وقف في وسطها شخص قصير ذو شوارب كثيفة سوداء، وكرش منبعج، صقري العيون. بدا لي كحيوان أنهى التهام فريسة ويستعد لالتهام الثانية. لحظات ودخلت فتاة فارعة الطول شقراء، بملابس جيشية.

ألقى "عزرائيل" أوامره:

- اخلعي ملابسك.

انكمشت، وتقاطع ساعداي فوق صدري أحتمي بهما. لم يمهلني وطلب من الآخرين تعريتي عنوة.

قاومت ولم تفد مقاومتي. أصبحت بلا ملابس كما ولدتني أمي تماماً. شدّت يداي خلف ظهري، وضع القيد فيهما. ألقوا بي أرضاً. انغرز القيد في عمودي الفقري فتصاعد الألم كخيط من نار يسري في نخاعي الشوكي. هجم القصير وثبت ركبتية في بطني فزاد ضغط القيد على عمودي الفقري، كاد يقصم ظهري وأصبح الألم يفيض كشلال من نار. أمسك الطويل - عزرائيل- بعصا، باعد ساقي وثبتهما بركبتيه. وثبتت الفتاة رأسي بقدمها.

الجاثي بركبتيه على بطني بدأ يسحق صدري بكلتا يديه الضخمتين. زمجر الألم وتصاعد من صدري ومن ظهري كبركان من نار، ينبع من مكان قصي في أعماق الأرض، يجتاحني ويجرفني في طريقه، صاعداً نحو السماء.

"عزرائيل" يحاول بالعصا اختراق رحمي.

قاومت.

كل خلية، كل مفردة في كينونتي، كانت تقاوم. كل عناصر الحياة للمقاومة استحضرتها. كل المظلومين في الكون، وعبر التاريخ، استحضرتهم وتحولوا إلى إرادة تجري كنهر يصب في مقاومتي. وكبرق، انبثق في وعيي، بأن إرادتي في تلك اللحظة هي إرادة المقاومة المطلقة لكل المظلومين من البشر عبر كل الأزمان والأماكن. كانت لحظات تعادل زمناً ممتداً منذ فجر التاريخ وعبر كل العصور، موحدة كل عذابات البشر من البشر، تصب دفعة واحدة في جسدي وروحي وتجري في نخاعي الشوكي، ثم تنفجر في قلبي رفضاً. يفيض فيغمر الكرة الأرضية ويصبغ البشرية بلونه الأحمر الناصع.

قاومت . . .

صرخت . . .

- "لاااااا"

الهزائم العربية كانت حاضرة بقوة . رأيتها تتكثف في ذاك الوضع وتلك اللحظات .

"اللا" ، صرخة رفض كانت . رفض للهزيمة ورفض لكل ما يمثله ذلك الوضع وتلك اللحظات .

أكرر "لا" ، "لا" وأصرخ بها .

وعيٌ أضاء روحي كبرق ، تجسّد في رفض الهزائم العربية بإرادة مقاومة مطلقة : إذا لم يقاوم العرب هذا الظلم فإني أدشنها للتو في هذه اللحظة بكل إرادة الكون في مواجهة الظلم ، وإني أرفض الانهزام .

استمروا في تفتيت صدري ، ومحاولات اختراق أعماقي بالعصا دون أن يتمكنوا من ذلك . كنت أقاومهم بإرادة تفجرت في داخلي كبركان .

توقفوا .

هل انتهت المعركة بهزيمتهم؟

وإذا بسطل ماء بارد يصبّ فوقي ، ثم ثانٍ فثالث .

أمسك أحدهم بقدميّ والآخر بذراعيّ ، مسحا الأرض بجسدي ثم خرجا بي إلى الممر . صف من الشباب أوقفوهم إلى جانب الممر .

أغمضت عيوني، ساروا بي في الممر ثم عادوا. انفجر أحد الشباب باكياً. كان بكاؤه نشيجاً. لكني لم أجرؤ على فتح عيوني كي لا تصطدم بعيون أحدهم.

عادوا بي إلى الغرفة نفسها. كان شخص ينهي مسح الأرض من الماء، خرج وأبقى الباب مواربا.

رموني أرضاً وعادوا إلى عملهم الأول.

أطل وجه من الباب، ابتسم وغاب! وجه آخر أطل وقهقه عالياً قبل أن يغيب.

"نازيـون". صرختُ وكنت كذبيح ترفرف فيه إرادة الحياة قبل أن تغادره عنوة.

انتقل بوط المجندة الأبيض الطويل من على جبيني إلى فمي.

دخل شخص فاردا يديه كأنما يريد حمايتي: "ياعيب الشوم، يا عيب الشوم. ارفعوا أيديكم عنها". فتوقف الجميع، ورفع الحذاء من فوق فمي. كانت ورقة وقلم في إحدى يديه.

"أنا جاي أنقذك يا عايشة من هذا العيب الذي أنت فيه! اعترفي وأنقذي نفسك، وأنا آمرهم بأن لا يمد أحد يده عليك. قولي فقط مين اللي نظمتيهم ودربتيهم. ليش تتعذبي عشان غيرك؟"

- لا أحد عندي.

- والأسلحة التي ما زالت عندك؟

- لا أسلحة عندي.

- ذنبك على جنبك، أنا بدي أساعدك فقط.

قال كلماته وخرج.

هجموا من جديد.

دخل آخر وطلب منهم التوقف.

سألني:

- من قام بعملية محني يودا؟

- أنا من قام بعملية محني يودا.

انفرجت أساريره وأكمل:

- هاتي التفاصيل.

- أعطوني التفاصيل وأنا مستعدة للاعتراف بها.

- "بدنا التفاصيل منك".

- ليس لدي تفاصيل.

- "ذنبك على جنبك، كنت عايز أساعدك. بس انت ما بدك تساعدي حالك"

- نازيـــوووووون.

صرخت من أعماق كينونتي وبكليتها.

هجموا من جديد على الجسد الملقى. سدوا فمي بالحذاء. لم يعد بمقدوري الصراخ. والصراخ نافذة فرج. "يا الله، أين أنت يا الله؟! كن بعوني يا الله.." قلتها في أعماق نفسي.

أخذ جسدي ينوس، ثم، انطفأ كسراج استهلك كامل زيته.

كنت بكامل وعيي.. لكن جسدي انفصل عني.

أدرك (عزرائيل) أن شيئاً حصل لي. رمى عصاه ونهض سريعاً معطياً أمراً للآخرين. بسرعة أحضرت الجندية كرسياً. رفعاني من كتفي وأجلساني عليه. أذكر أن جسدي لامس الكرسي ثم بدأ يهوي. لم أعِ لحظة اصطدامه بالأرض.

غادرت روحي الجسد والمكان والزمان!

استئناف الحياة

تجمع كل الألم والعذاب الذي تجرعته في تلك الليلة وتكثف كلّه على رأس دبوس غزّني في دماغي. لم تتحمل روحي العذاب الذي غزني إيّاه رأس الدبوس، فهربت روحي وانتقلت إلى العالم الآخر. متّ. وإذا بي أفتح عيوني. لقد عادت روحي إلى الحياة! موت أخرجني من موت! وعذاب خلصني من عذاب.

فرحت بعودتي إلى الحياة. وهتفت روحي: "انتصرت إرادتي، إنّني أولد من جديد".

في تلك اللحظة التي فتحت عيوني بها، كان طبيب وربما ممرض، بلباسه الأبيض، قد غرس حقنته في ساعدي، وكان عدد من الأشخاص يحيطون بي، أحدهم يصفع وجهي صفعات خفيفة ويكرر مناداة اسمي "عائشة . . . عائشة . . اصحي". آخر، كان يسند رأسي وكتفي إليه، رابع يحمل كأس (ليموناضا) يحاول تجريعي قليلاً منها.

كان الخوف يعلو الوجوه!

أية مفارقة؟ أنا فرحة وهم خائفون.

هتفت في أعماقي: "لقد انتصرتُ وقد هُزِموا".

نعم، كانوا خائفين. إنهم يخافون أن أغدو شهيدة.

إنهم يخافون الشهداء.

كنت في مكان آخر بكامل ملابسي! وفراش من تحتي! ومن فوقي غطاء! ارتشفت بعض الرشفات القليلة من شراب الليمون ورحت في النوم كما يفعل الوليد وربما غبت عن الوعي، ربما لم يكن فرق بينهما.

صحوت من جديد. كان المكان قد تغير مرة أخرى، وأنا في غرفة وحدي يحرسني جندي يجلس على كرسي إلى جانب الباب وهو يحتضن سلاحه. حاولت تحريك جسمي، لم أستطع، لم يكن لي سلطان على جسدي. تنبه الجندي إلى محاولتي، سارع إلى مساعدتي، ابتسم بشيء من التعاطف، انحنى، سحب الغطاء بأدب مظهراً تعاطفاً واضحاً. غطاني وعاد إلى كرسيه. أفرحني تعاطف الجندي، كما تفرح جرعة ماء مسافراً في صحراء.

كانت صحوة قصيرة، غبت بعدها فيما يشبه النوم أو الصحو. حالة متأرجحة بين قطبي النوم والصحو. قام الجندي بتغطيتي مرتين أو أكثر خلالها.

ما زلت بين الصحو والنوم. شخص يهز كتفي قائلاً:

- "اصحي، اصحي يا عائشة".

صحوت.

- "خذي كلي، رغيف محشو بلحمة مشوية من أختك، وعدتها بالأمس أن أدخل لك الأكل إن أحضرتْه اليوم. وها أنا أفي بوعدي". كان هذا هو (الغريب) الذي كان أول من التقيته أمام بيتنا. كنت أرى وأسمع ولكن لم يعنني أكل أو أخت أو أي شيء!

- ألا تريدين الأكل؟

لم أجب، كأن السؤال لا يعنيني!

- بما أنك لا تريدين أكله، هل تسمحين لي به؟

لم أغادر منطقة اللاتجاوب. أخذ الرغيف وانصرف! وعدت أنا إلى عالمي السابق ما بين النوم والصحو، ثم إلى عالم النوم.

صحوت.

كما نباتات الأرض بعد سبات شتاء طويل، صحوت.

روحي تسبح في عالم من الصفاء والحرية والنور لا تعرف الحاجة ولا الخوف. ترف في سماء صافية كطائرة ورقية لطفل في يوم صيفي. ترى ما على الأرض بوضوح وتحافظ على مسافة بينها وبينه. حرة لا تخضع لقيود الجسد أو البشر. تغتسل بالنور! بلا حقد أو انتقام، لا هزيمة أو انتصار. لا أهل أو أصدقاء. لا أمة أو أعداء.

روحي تنتمي إلى عالم آخر. عالم مشرف وفوق أرضي.

كأنها في فرح أبدي وقد امتلكت حريتها. تسبح بين عوالم عدة لا يدركها من هم على الأرض. وجسدي بلا احتياجات! كانت حالة رائعة من الوجود!

حضر شاب وفتاة وعرضا عليّ النهوض للذهاب إلى الحمام لغسل وجهي وتمشيط شعري. لم يكن يعنيني ولم يكن بمقدوري التحرك، فلم أحاول. بذلا جهوداً لإنهاضي دون جدوى. خرج الشاب مسرعاً وعاد بيده مرآة ومشط، قدّم المرآة لي والمشط للفتاة. ليس بي حاجة لشيء، لم أحاول لمسها. رفعت الفتاة يدي في محاولة منها لمساعدتي للإمساك بالمرآة. رأيت يدي! منتفخة كانت، ككرة سوداء! لم أنفعل، لم تكن تعنيني. مدّ الشاب المرآة مقابل وجهي لأتمكن من رؤيته. تأملت الوجه في المرآة، وجه منتفخ، مغطى ببقع زرقاء مسودة، جروح خفيفة حول الفم، ازرقاق حول العيون وفوق الجبين، كان وجهاً مشوهاً، لكنه ليس وجهي. إنه لا يعنيني. لكني رأيت قصدهما! كانا ينتظران فزعي لمنظر وجهي.

هما خائبان الآن.

ذهبا بالمشط

دخل يحمل أوراقاً، وجه أراه لأول مرة. جلس أرضاً بالقرب مني. بدأ كلامه:

- أنت مريضة بالقلب يا عائشة.

قال جملته وانتظر قليلاً قبل أن يكمل:

- وتحتاجين إلى علاج.

- وبيتكم سيهدم، وستحكمين "مؤبد".

تمهل من جديد قبل أن يكمل:

- نحن قادرون على مساعدتك. نحن نعرف أنك وطنية وتحبين شعبك. نحن لا نعرض عليك التعامل معنا لا سمح الله، ولكننا نعرض عليك فرصة تستطيعين فيها مساعدة نفسك ومساعدة شعبك!

توقف قليلا ثم استأنف:

- لا نخفي عليك أننا اعتقلنا هذه الأثناء ما لا يقل عن ثلاثمائة شخص، ومن المؤكد أن فيهم أبرياء، نعرض عليك قائمة الأسماء وما عليك إلاّ أن تؤشري بجانب الأسماء البريئة لنقوم بإطلاق سراح أصحابها في الحال. وفي المقابل؛ نحن على استعداد لعلاجك في مستشفى هداسا بالإضافة لمنع نسف بيتك (كان البيت منسوفاً) إضافة إلى استعدادنا لإخراجك إلى الأردن بعد الحكم مباشرة. وها هي الأوراق معي لتوقيع هذا الاتفاق بيننا!

لحظات كَشْف هي التي كنت أعيشها. هكذا يصف بعض الناس من يعتقدون أن الله يكشف لهم بصيرتهم، لأنهم يرون ما يجري في عقول الناس وقلوبهم! كنت من هؤلاء في تلك اللحظات، يكشف الله لي ما في القلوب والعقول. لم أكن أفكر وأحلل وأستنتج! وإنما أرى بوضوح! رأيت الخدعة، والبيت المنسوف، وقلبي القوي والسليم. كنت أراهم ولا يرونني!

قلت: أنا لا أعرف أحداً سواء أكان بريئا أم غير بريء.

قلتها بهدوء دون أدنى انفعال. وبهدوء أشحت بوجهي إلى الجهة الثانية.

أدرك أن لا أمل.

قال:

- لكنّي أحضرت الأوراق كي نوقعها! هل ستعيدينني مكسوفاً؟!

- لم أضحك على تلك البلاهة بل تجاهلته تماماً.

انسحب.

كان خائباً.

وكنت في صفاء وتجلّ.

لم تمض إلا فترة قصيرة من الزمن قبل أن يدخل المدعو "أبو النمر". رأيته ثعلباً يختفي خلف قناع يلبسه فوق وجهه!

جلس قريباً من الفرشة كما يفعل الأصدقاء!

- مرحبا يا عائشة.

. . . . . .

- كيف حالك الآن؟

. . . . . .

- هل تعرفين أنني قادم إليك دون أن يعرف أحد؟! لقد عرفت عما حصل مع الشخص الذي مرّ عليك قبلي. هل تعرفين أنه تحوّل إلى أضحوكة؟ وحده الذي اعتقد أنك ستوقعين على الأوراق، وقد راهن على ذلك. وأنا أقول لك إنك فعلت خيراً حين لم توقعي عليها.

. . . . . .

- لقد سمعت بكل ما جرى معك! وأنا خجل من أعمالهم! لا أعرف كيف أعتذر لك عما جرى معك!

على فكرة؛ هل جربوا الكهرباء معك؟ سمعتهم يتحدثون أنهم يريدون استعمال الكهرباء لأنهم متأكدون أن لديك الكثير من المعلومات المهمة بالإضافة إلى وجود أسلحة أخرى.

سكت، حاول قراءة أثر وقع كلامه. كيف له أن يقرأني وأنا في حالة تستعصي عليهم؟

أكمل:

- علمت أنك مريضة بالقلب؟

. . . . . .

- أنصحك ألا تعرضي نفسك لتعذيب آخر، قد تموتين إذا قرروا استخدام الكهرباء!

توقف من جديد عن الكلام يبحث عن وقع الكلام.

حضرتني "جميلة بوحيرد" وقد مرّت بتجربة الكهرباء. وفكرت: "لست أقل منها فلأجربها إذا كان لا بد منها"!

قرأته بوضوح، فقلت:

- لم يعد لدي ما أخفيه. أما إذا أرادوا موتي فليأتوا بسرعة لاستخدام الكهرباء. أنا نفسي راغبة في الموت. أريد أن أموت. أرجوك أن تجعلهم يأتون بسرعة! لن أغلبهم كثيرا! سأموت بسرعة، وبخاصة أننا

عائلة تعاني من أمراض القلب. لقد ماتت أختي وهي بنفس عمري الآن بمرض في القلب. وأنتم تقولون إنني مريضة بالقلب.

أربكته إجابتي.

- لا تيأسي يا عائشة، كل شيء يمكن أن يتغير. ما زلت شابة صغيرة وما زالت الحياة أمامك. والحياة جميلة.

قاطعته:

- ما قيمة الحياة التي سأعيشها في السجن ومريضة بالقلب؟ الموت خير من هذه الحياة التي تنتظرني!

- لا تيأسي؛ ثقي أن الأمور لا تبقى كما هي، وأنها لا بد أن تتغير، والمرض يمكن علاجه.

- أريد أن أموت، دعهم يستعملون الكهرباء.

- إياك من اليأس، كل شيء يمكن أن يتغير، وما زلت صغيرة.

نهض "أبو النمر"، وخرج وهو ما يزال يردد:

- لا تيأسي، كل شيء يمكن أن يتغيّر.

لم يستعملوا الكهرباء ولم أمت، وتركت بعد ذلك، وفي ذات المكان، نائمة خمسة أيام متتالية. ربما كنت أتناول طعاماً، لكنني لا أتذكر، إلا أنني كنت مستمرة في حالة أقرب إلى النوم، منها إلى الصحو.

في صبيحة اليوم الخامس، أفقت وعندي رغبة في النهوض. كان ضوء

بهي يدخل من النافذة يشي بجو ربيعي، حضر شاب وفتاة وساعداني على النهوض والذهاب إلى دورة المياه. تلمست الماء بشوق وأنا أشطف وجهي.

أحضروا إفطاراً فأكلته بشغف.

ساعدتني الفتاة في تمشيط شعري وجدلته في جديلة على ظهري.

قال الشاب والفتاة: ساعدينا، نريد نقلك من هذا المكان.

لم أستطع لبس الحذاء. كانت أقدامي منتفخة ككرة زرقاء. أمسك كل من الشاب والفتاة بأحد ذراعي وساعداني على السير، كنت كطفل صغير يتعلم المشي وكانا لطيفين. سارا حسب إيقاعي. نزلنا درج عمارة التحقيق، ثم عبرنا الساحة. كانت السماء صافية والشمس ربيعية. توقفت قليلاً تحت أشعة الشمس وكنت أتكئ عليهما، فتوقفا دون اعتراض أو إلحاح على السير. باطنا قدميّ لم تتحملا الوقوف. تقدمنا نحو مبنى التوقيف. حال دخولنا الممر الطويل أشار شرطي كان في نهاية الممر المقابل، بضرورة التوقف، فتوقفا. جرى الشرطي واحضر حراماً وغطّى باباً سنمرّ من أمامه.

لا بدّ أن خلف ذاك الباب أناس، أريد لهم عدم مشاهدتي. هكذا فكرت. شددت قامتي وأبطأت في المشي، علّني أستطلع شيئاً. بقي الشرطي مثبتاً البطانية على الباب إلى أن مررنا وابتعدنا.

إلى الزاوية المعتمة نفسها التي كنت فيها سابقاً وصلت.

زقزقة

المساء ذاته، كل شيء كان هادئاً في مكاتب الشرطة من حولي. وإذا بأغنية لأم كلثوم تصلني كأنها زقزقة عصافير ذات صباح نديّ. صوت جميل. بل ساحر. يأتي من البعيد، ويأخذني إلى البعيد. إلى طالباتي. إلى سعاد وهي تغني لأم كلثوم تحت شجرة البطم على رأس الجبل الشمالي لبلدة عين يبرود؛ البلدة التي كنت أدرّس فيها.

كنت قد بدأت تقليداً أسبوعياً فترة فصل الربيع، وهو الخروج مع الطالبات في نزهة للتعرف على تفاصيل الطبيعة من صخور وأشجار وأزهار ونباتات ووديان وتلال محيطة بالبلدة. شكل من أشكال الارتباط بالأرض والوطن. كنا نختار شجرة نجلس في ظلها أو صخرة، نتشمس عليها، ونأكل ساندويشاتنا، ونستمع إلى سعاد تغني لأم كلثوم.

أخذت أفكر ما إذا كان من أحد سيكمل ذلك التقليد بعد غيابي؟ وما هو رد فعل الطالبات والمعلمات على اعتقالي؟

"ونهلة" الصغيرة ماذا جرى لها. لو أستطيع احتضانها والنظر في عيونها التي تفيض حباً لم أدرك كنهه.

ما زلت مسترسلة في الذكريات وأستمع لأغنية أم كلثوم الآتية من البعيد. توقفت الأغنية، ثم انطلقت أنشودة أم كلثوم؛ "ثوار، ثوار. مطرح ما نمشي يفتح النوار". خفق قلبي. أدركت أنها رسالة لي لا شك في ذلك. زاد انتعاش روحي حين انضم صوت ثان إليها. كأنها آتية من السماء. مست الرسالة شغاف قلبي. وكما الأرض يحييها المطر بعد جفاف، كانت الرسالة لي. فاضت روحي ببكاء شفيف كأنه الرذاذ في يوم قائظ.

ما أعظم تلك الرسالة! هذا الصوت الذي اخترق العزل والعداء ووصلني بشعبي، يحمل مشاعر حب تعنيني، ألتقطها بوضوح وصفاء.

نعم، إنها رسالة لي.

من هؤلاء المناضلات اللواتي يغنين وينشدن "ثوّار" رغم الاعتقال؟

لست وحدك يا عائشة. هؤلاء مناضلات، لا يبكين، بل تنطلق حناجرهن في الغناء والإنشاد.

لست وحدي، لست وحدي. الصوت ملأني حباً. وخلق شعوراً بالتواصل مع شعبي.

تركت في ذلك المكان عشرة أيام. لم يسألني أحد خلالها شيئاً، ولم استدع لتحقيق. كنت أنتظر كل مساء ذلك الهاتف الذي يأتيني عبر أغنية أو نشيد. وكنت في ترقب وانتظار لسلسلة من التوقعات المتناقضة يخلقها الواقع والخيال لمواجهة العزلة والوحدة والحصار والتوقيف تحت الطلب. والزمن ثقيل ومراجعة الماضي القريب ومحاولة لملمة خيوط ما جرى وما يجري غير ممكنة رغم حضورها الكثيف. وأمي وأهلي وكيف سيتدبرون؟ كيف ستعلم أمي أني نهضت من كبوتي وأني خلقت من جديد؟

في أحد الصباحات، دخل شرطي وعلق معطفه وترك الباب مواربا. "ربما أستطيع الهرب" فكرت مباشرة، والتفكير بالهرب لصيق بتفكير الأسير لا مفر. يندفع التفكير بالهرب إلى وعي الأسير كما يندفع الهواء إلى حيث الفراغ. حاولت الإطلال لاستكشاف الوضع. رأيت سيدة جليلة تجلس على كرسي قبالة الباب وبجانبها شابة. كانت السيدة "عصام عبد الهادي" وابنتها "فيحاء". تعرّفنا على بعضنا بسرعة قبل أن ينتبه الحراس. فهمت أن قراراً بإبعادها وابنتها عن أرض الوطن قد صدر، وسينفذ في اليوم ذاته. وعلمت منها أن عشرات من الفتيات من نابلس تم اعتقالهن. وأن مزيداً من العمليات نفذت.

تنبه أحد الحرّاس. جرى وأقفل الباب.

ترك ذلك اللقاء الخاطف مع السيدة عصام أثراً مهماً في نفسي، وصرت أردد مقولات تطربني:

ها هو شعبنا ينهض بنسائه ورجاله كمارد جبار. وسيندم الاحتلال ويرحل، لن تطول إقامته فوق أرضنا. لن يطول ليلنا وستشرق شمس حريتنا. نساء فلسطين، ورود حرية تتفتح وتنهض في رام الله والقدس وغزة ونابلس. لا قيمة لأحكام المؤبد، ولن تطول إقامتي في السجن.

"لو أستطيع إعلام رسمية بهذه التطورات".

خفّت آلام جسدي وزال الانتفاخ من معظم أنحاء جسمي، والازرقاق تحول إلى عدة ألوان من أزرق وأصفر وأحمر وبني.

وأخيراً تم نقلي عند المجموعة.

مع المجموعة

فتح الشرطي باب الزنزانة وطلب مني الدخول. أسرعت الفتيات لاستقبالي كأنما كنّ في انتظاري. وجوه أعرفها وأخرى لا أعرفها والجميع شارك في الاستقبال. كان الاستقبال حاراً لم أتوقعه قط. قمن بترتيب سرير حديدي وأجلسنني عليه وتحلقن حولي، ورحن يسألنني عن صحتي باهتمام بالغ أثّر في نفسي، وصرت أفكر في سر ذاك الاحتفاء.

سألتني فتاة طويلة، سمراء، تشع عيونها الواسعة ذكاء وحيوية.

- هل سمعتِ أغانينا؟

وأكملت "حياة عبيدو":

- كنا نغني لك ليليا لتعرفي أنك لستِ وَحْدَكِ!

زادت حيرتي وكنت أتساءل في نفسي: كيف عرفن عن وجودي ولوحدي؟ وإذن كان إحساسي دقيقاً عندما أدركت أن الغناء كان رسالة خاصة لي! وهل أستحق كل هذا الاحتفاء؟ ولماذا؟

تابعن أسئلتهن :

- كيف أقدامك الآن؟ . . يداك؟ . . وجهك؟ . . عيونك؟ . . جسمك . . . ؟

كن يسألنني ويتفقدنني كما تتفقد أم طفلها الذي كان غائباً أو مريضاً . زاد اغتباطي بذلك الاهتمام وزادت حيرتي .

- لقد رأيناكِ حين مررتِ من هنا .

أطلقت الجملة الفتاة السمراء الطويلة ، كأنما قرأت حيرتي وتساؤلاتي .

ثم تدفقت "حياة" بالحديث :

- أنا لا أعرف الجلوس داخل هذه الزنزانة . أهرب منها فأقف على بابها ، أتسلّى بمراقبة الذاهب والآتي ، أمتحن لغتي العبرية التي تعلمتها من خلال دورة لغة عبرية لم أكملها بعد . أدندن بأغنية أحياناً . سمعت الشرطي يقول بالعبرية ؛ "انتظروا حتى أغطي الباب" . لم أفهم في البداية عن أي باب يتكلم ، وعندما غطى باب غرفتنا بالبطانية ، أدركنا أن شخصاً مهماً سيمر من أمامنا ولا يريدوننا رؤيته . فقلنا سنراه . شخصياً ، تسلقت الباب كي أنظر من خلال فتحة صغيرة كانت في أعلاه تشكلت لعدم شد حافة البطانية بشكل كامل .

اندفعت الفتاة السمراء الطويلة مقاطعة أو متابعة ما بدأته حياة من قصٍّ :

- أما أنا ، فقمت بإزاحة طرف البطانية من الجانب قليلاً ، واستطعت رؤيتك . لا أستطيع نسيان منظرك . لم تكوني قادرة على السير ، كنت تسيرين ببطء شديد حافية وأقدامك متورّمة ومزرقة كثيراً ، وجهك كله

بقع زرقاء وبه خدوش. ولكنك كنت تسيرين بشموخ وكبرياء، تضعين المعطف على أكتافك ببهاء وتمسكين بطرف قبته بيد منتفخة ومزرقة. كان يشع منك شيء أسرني. تأثرت وخجلت من نفسي، وقلت: كيف اعترفتُ بأنني منظمة بعد عدد من الكفوف، بينما هذه الفتاة تسير بهذا الكبرياء رغم العذاب الواضح عليها؟ قررت أن أطلب المحقق لأنفي ما اعترفت به. سأتحمل الضرب ولن أموت. وهكذا فعلت. قالوا لي ستعرضين نفسك للتعذيب. قلت لهم تفضلوا وعذبوا ما تشاؤون. ضربوني عدداً من الكفوف وبقيت مصرّة على النفي. أنهوا التحقيق معي. عدت وأنا أشعر بأني أكثر احتراماً لنفسي.

"ليلى عودة" قالت أنها استلقت على الأرض ونظرت من خلال فراغ لم تغطه البطانية واستطاعت رؤية أقدامي المنتفخة.

سردت كل واحدة قصتها مع ذلك الحدث. شعرت بما غمرنني به من تقدير وعواطف دافئة وجميلة وأكبرت ذلك في نفسي. "حولنني لرمز للصمود في نظرهن" قلت ذلك في نفسي التي طربت له ولكني أدركت بشكل غامض ثقل المسؤولية التي يتطلبها ذلك في الوقت الذي برقت في ذهني صورتي وأنا أمد يدي مشيرة إلى مخبأ الأسلحة، وقلت في نفسي "إنهن لا يعرفن ذلك بعد".

كنّ تسع فتيات، أعرف عدداً منهن؛ سامية الطويل، حياة عبيدو، ليلى عودة (أخت رسمية)، ليلى وعائدة قمري (أختا وداد قمري). وأخريات ألتقي بهن لأول مرّة؛ عزية وزوز، حنان عسلي، انتصار بسيسو وزوجة قاسم أبو عكر.

"عزية وزوز" من القدس. هي تلك الفتاة الطويلة السمراء ذات العيون

الذكية، الواسعة والسوداء، وهي صاحبة الصوت الجميل لأم كلثوم. لها حضور قويّ، شاب وجهها بعض آثار لحب الشباب، و"عزية" طالبة في الصف التوجيهي العلمي.

"حياة عبيدو" من القدس. كانت تساهم في الغناء إلى جانب "عزية". هي في السجن رهينة بدلاً من أختها "رشيدة". أكّدت أنها غير متأثرة لوجودها في الاعتقال وقالت: ما دمت في السجن فهذا يعني أنهم لم يعتقلوا أختي، وهذا يطمئنني. وسيطلقون سراحي عاجلاً أم آجلاً. وها أنا كما تريننني، أضحك وأغني وأحسّن لغتي العبرية.

لحياة عيون خضراء ووجه بشوش وجميل، يتجه إلى الأعلى دائما كأنما على أهبة الضحك والقهقهة. تبث لنا ما تشاهده أو تسمعه أثناء وقوفها عند الباب، أو أنها تنشد وتغني. أحياناً تتذكر نكتة، تترك الباب لترويها لنا ثم تعود إلى مكانها عند الباب. سألتها مرة: ألا تتعبين من الوقوف؟ ضحكت وقالت: هل تصدقين أنني لم أفكر بذلك، والآن فقط عندما سألتني أحسست بتعب أرجلي! سحبت بطانية وجلست عليها بجانب الباب قليلاً لكنها عادت للوقوف من جديد. "حياة" طالبة ثانوية (ثاني ثانوي).

الفتاة الثالثة كانت "سامية الطويل" من البيرة. سامية طالبة توجيهي كذلك. كانت صامتة معظم الوقت، صمتها لم يهمشها، بل كان لها حضور قوي يظهر في توجيه الكلام لها عندما تتحدث أي من الفتيات. أعرفها؛ رفيقة نشطة وموضع ثقة عالية، يهمنا رأيها، ونعتمد عليها في المهمات التي تحتاج حركة سريعة مثل نقل الرسائل دون أن تلفت الانتباه، ساعدها على ذلك حجمها الصغير الذي يميل للطفولة. عيونها خضراء داكنة ذات نظرة عميقة، يعلوهما حواجب سود وكثيفة.

سألتها :

هل سألوك عن عمرك؟ وبماذا أجبت؟

- قلت إنني في الثامنة عشرة .

- وهل أكملت الثماني عشرة سنة؟

- أُكملها بعد أشهر .

- يمكنك القول إن عمرك ست عشرة سنة، أنت لا تبدين أكثر من ذلك .

- وكيف أعود عما قلت؟

- من الممكن تدبير قصة . نستفيد مما يجري في مجتمعنا أحيانا . ألم يحدث أن بنتا أو ابنا توفي ثم جاء طفل آخر فسماه الأهل بالاسم نفسه ليحافظوا على شهادة ميلاد الأول؟

- هل تعرفين أن هذه ليست قصة مختلقة تماماً؟! وأن أختاً لي أكبر مني توفيت قبل ميلادي؟!

طلبت سامية مقابلة المحقق وقدمت قصة عُمْرِها .

"ليلى عودة" هي الأخت الصغرى لـ"رسمية عودة" ، طالبة في الأول ثانوي . اعتقلت مع جميع أفراد الأسرة المتواجدين في البيت بمن فيهم أختها فاطمة المشلولة، إضافة لابنة عمها "نادية" حين داهم الجنود البيت في حوالي الساعة الواحدة ليلاً . "ليلى" فتاة هادئة ودمثة، لم أعرف عنها أنها ذات اهتمام بالقضايا العامة، بل عُرفت باهتمامها بدراستها

وأناقتها. سألوها عن صديقات رسمية ومن يأتي عندهم إلى البيت، ولم يسألوها عن أي شيء آخر، كما قالت!

"ليلى قمري" من القدس. موظفة، ربما كانت في أواخر العشرين من عمرها. نحيفة، متجهمة وجادة، قليلة الكلام حذرة، لكن وجهها يضيء حين تبتسم.

"عايدة قمري" على الأرجح أنها لم تكمل العشرين من عمرها. لها وجه نحيف وردي البشرة، عيون واسعة ومحيرة في لونها بين الأخضر الفاتح والأزرق، لها أنف طويل وقامة طويلة ونحيفة، حتى صوتها كان نحيفا. تبدو خالية من الهموم، لها ابتسامة عريضة شبه دائمة. ليلى وعايدة من أسرة مقدسية كانت موضع المراقبة والمداهمة منذ أن أصبحت أختهما "وداد" مطلوبة بإلحاح لقوات الاحتلال الإسرائيلي كواحدة من قيادات الجبهة الشعبية. إنهن يدفعن ثمن نشاط أختهن!

"حنان العسلي" من القدس، طالبة في التوجيهي. فتاة سمينة، وردية البشرة، نضرة الوجه بشكل يشي بوضع اقتصادي جيد. ابتسامتها الدائمة، تدفن عيونها وترسم على وجهها طفولة وطيبة بلا حدود.

"انتصار بسيسو"، أهلها من اللدّ، نزحوا العام ٤٨ واستقروا في القدس. سمراء البشرة تميل إلى الشحوب. عيونها سوداء صغيرة. لها تعابير وجه مريحة. مستمعة جيّدة وقليلة الكلام، لكنها تشدّ السامع حين تتحدث بصوتها العميق.

"انتصار" و"حنان" و"عزية" زميلات صف واحد ومتهمات بالانتماء إلى صفوف الجبهة الشعبية.

زوجة قاسم أبو عكر. أم لثلاثة أطفال. اعتقلوها مع زوجها، طلبوا منها أن تشي بزوجها وتحدثهم عن نشاطاته وعن الأفراد الذين يترددون عليه، وعن الأسلحة ومخابئها التي لديه، كما يقولون. لم تتوقف عن البكاء، شديدة الجزع على أطفالها. كلما اقترب شرطي من الباب، تتقدم نحوه وهي تبكي وتسأل عن موعد عودتها إلى أطفالها. بعد أيام قليلة أطلق سراحها.

وجدت زوجها أمامها جثة. كان قد قتل أثناء التحقيق.

الزنزانة أو الغرفة التي نتواجد فيها واسعة نسبياً؛ يتراوح طولها بين خمسة أمتار أو يزيد، وعرضها أربعة أمتار تقريباً. ثبت في أرضيتها ثلاثة تخوت حديدية، وفيها عدد من فرشات القش ذات رائحة نتنة. لها مرحاض صغير ينزوي في الزاوية إلى جانب الباب.

للزنزانة طاقة، بلا زجاج، عليها أكثر من شَبَك وقضبان حديدية سميكة. يصعب الوصول لها لارتفاعها عن الأرض، كأنها حاولت الهروب فاصطدمت بالسقف وعُلِّقت به.

بعد أيام عدة من وجودي مع المجموعة، استقبلنا ضيفة جديدة. فتح باب الزنزانة، دخلت شابة كانت تعرج قليلاً، لكن هيأتها تعبّر عن شموخ وكبرياء بشكل واضح. قلت في نفسي ربما "عائدة" غزة. لم تكن توصف بالطول أو القصر أو النحافة أو السمنة، (يقولون عنها في بلادنا ربعية)، وكانت بادية الجمال. لها عيون سود واسعة ذات رموش كثيفة طويلة ومعقوفة إلى الأعلى. أنفها صغير مثير للمودة والتعاطف، شاحبة اللون كما لو أنها في فترة نقاهة بعد مرض شديد. كانت هذه "مريم الشخشير".

"مريم" طالبة توجيهي من "مدينة نابلس"، متهمة بعملية تفجير في الجامعة العبرية. تم إلقاء القبض عليها قبل حوالي أسبوعين. وها هي تنضم إلينا. قلت في نفسي إن الأفق يتسع، وتتسع مشاركة الفتيات. وها هي رفيقة جديدة تنضم إلى مسيرة النضال والتحرر. ولم أنكر على نفسي فرحتها النابعة من أنانيتها (لن أكون وحدي معتقلة ومحكومة حكماً طويلاً، حكمها سيكون مثل حكمي، وقريبا تنضم إلينا "رسمية"، نصبح ثلاثاً بدلاً من اثنتين! وستنضم إلينا "عائدة" ابنة غزة).

"مريم" لم تكن تعرف أحداً منا، لكنها دخلت بلهفة كأنما تدخل عند أهلها، وتحدثت معنا كأنما تعرفنا منذ زمن بعيد. كانت ودودة ومثيرة للمودة في الوقت ذاته. شاهدنا آثار التعذيب الباقية على جسدها، قدمها اليسرى تورمت بسبب الضرب، ما سبب لها العرج. أثار كدمات زرقاء بانت على أنحاء مختلفة من جسدها. آثار التعذيب التي شاهدناها أثارت تعاطفنا معها، دخلت قلوبنا بسرعة مذهلة، أحيطت بمشاعر الإكبار والاحترام، وتم التنازل لها عن تخت لتنام عليه.

مريم كانت مذهولة مما جري معها في التحقيق؛ قالت باستنكار:

- تصورن أنهم يساومونني على انتمائي!

وانتظرنا كي تفسر لنا ما تعنيه بقولها، لكنها كررته أكثر من مرة قبل أن تبدأ بشرح ما حدث معها.

قالت:

- هل تعرفن ما هو الموضوع الذي ركزوا عليه معي في التحقيق؟ وأكملت:

- قالوا إن جمالي يدل على أنني يهودية . وأنهم بحثوا فوجدوا أنني يهودية لأن جدة أبي أو جدة جدي كانت يهودية . وأنا حقيقة لم أسمع بذلك من قبل . أخذوا يساومونني طوال الوقت كي أعلن يهوديتي ، وهم على استعداد أن لا يقدموا حتى لائحة اتهام ضدي ، بل سيخرجونني مباشرة حسب أقوالهم . تصورن! يريدونني أن أتخلى عن ديني وقوميتي؟ حتى جمالي يريدون نسبته إليهم؟

أضفى حضور مريم حيوية على أجواء المجموعة .

فتحت الشرطة باب الزنزانة، دخلت "رسمية" قمنا لاستقبالها، وحين وجدت أختها ليلى أمامها صرخت باستنكار : "هو إنت كمان معتقلة؟" . غطت وجهها بيديها، وتقدمت تجر أقدامها كأنما أصابها الشلل، وتهاوت على أول تخت صادفته ولاذت بصمت مطبق .

لم أدرك في البداية عمق الصدمة التي أصابت رسمية عند رؤيتها أختها أمامها . لكني كنت خائفة عليها وأنا أستعيد منظرها وهم يضربونها أمامي : "أيعقل أن يكونوا قد ضربوها حتى أوصلوها إلى حالة من الشلل؟" .

بقيت رسمية صامتة ولم تستجب لكل المحاولات التي بذلت من قبل المجموعة . احترنا لوضعها وطلبنا من الشرطة أن يحضروا طبيباً لها، لكنهم لم يكترثوا أبدا .

لم تكن رسمية حتى تلك اللحظة تعلم أن أختها ليلى في السجن .

كانوا قد اعتقلوا رسمية ووالدها ووالدتها (وهما مسنان) وأختها فاطمة (وهي تعاني من شلل)، ولم تكن ليلى في البيت فاعتقدت أنها لم تعتقل . عذبت رسمية أمام والدها، وأهينت أمها وأختها فاطمة أمامها

ثم أطلق سراحهم وهم في وضع صعب. ما كان يخفف على رسمية حتى تلك اللحظة، اعتقادها أن ليلى لم تعتقل وتستطيع رعاية والديها، لكن، ها هي ليلى في السجن! فمن يرعى والديها وأختها؟

أجسادنا ورؤوسنا تهرشنا فنهرشها. القمل كان قد غزانا وراح يسبح كيفما شاء.

ماذا نفعل، وقد صدمنا وأصاب بعضنا شبه هستيريا؟

وقفت "عزية" وسط الغرفة بطولها الفاره وتعابير وجه جاد وصوت حازم وخاطبتنا:

- القمل يأكلنا! طبعاً؛ صار لنا أكثر من شهر لم نغيّر ملابسنا ولم يلامس الماء أجسادنا ولا نعرف للصابون رائحة! هذا وضع لا يطاق. علينا أن نعلن الإضراب عن الطعام. ماذا تقلن؟

توقفت قليلاً ثم أضافت: ثم إننا لا نعرف أخبار أهلنا، وكذلك هم لا يعرفون شيئاً عنا. عادت وأكدت: يجب أن نُضْرِب.

قبل أن تسمع رأينا، دفعت باقتراحها خطوة أخرى ووضعت المجموعة أمام أمر واقع: أنا شخصياً سأضرب عن الطعام حتى لو لم تضربن!

هل كنا مترددات حتى تحسم الأمر وتضعنا أمام أمر واقع؟

لا أعتقد. فمن منا لا تعاني من القمل الذي غزانا جميعا؟ ومن منا لا تنسحب لساعات داخل نفسها تفكر بأهلها؟ ومن منا لا تريد التخلص من القمل؟ لكن ربما لم نفكر بالإضراب وكنا نفكر بالخطوات التي علينا

اتخاذها. وحين قدمت عزية اقتراحها بإعلان الإضراب، وافق الجميع دون تردد.

اتفقنا أن نرجع الطعام مع تحديد مطالبنا. وهذا ما حصل. أعدنا طعام الظهيرة ثم طعام العشاء. حضر الضابط المسؤول بعد العشاء. وقف أمام باب الزنزانة واستمع إلى مطالبنا. وعد بحل بعضها التي تقع ضمن مسؤولياته، مثل توفير ماء ساخن وصابون.

- لكن ثيابنا قذرة!

وعد بإدخال غيارات من الأهل إذا حضروا. أما المطالب الباقية فليست من صلاحياته، كما قال. وقد وعد بإيصالها إلى المسؤولين المعنيين.

في اليوم التالي وفى ضابط الشرطة ببعض وعوده: سطلان من الماء الساخن وقطعة من الصابون، وغيار واحد لحياة بحجة أنه لم يحضر من الأهل غير أهلها!

لماذا لم يحضر أهلي؟ وعلى الأرجح أن كل واحدة منا كانت تطرح على نفسها السؤال ذاته. ساد جو من القلق بان على الوجوه، ورحت أفكر بأهلي في الوقت الذي دخلت فيه حياة إلى الحمام.

خرجت حياة من الحمام وهي تغني، وبحركة احتفالية دعتنا للاحتفال بها واستنشاق رائحة النظافة قائلة أن هذا أهمّ حمام في حياتها. تغير الجو العام وقيلت بعض التعليقات، وقررت عزية الاستحمام، رغم أنها ستعيد ارتداء ملابسها الوسخة. كانت عند حياة مفاجأة: يوجد غيار داخلي آخر! صفقنا للمفاجأة. لكن، من ستأخذ الغيار؟ كنت أفترض

أن الغيار يجب أن يكون من نصيب عزية صاحبة المبادرة، لكن عزية فاجأتنا برفضها ذلك وتقدمت باقتراح لإجراء قرعة!

- أية قرعة يا عزية؟ أنت تشعرين بحاجتك الملحة للاستحمام، تأخذين الغيار وينتهي الأمر!

لكنها رفضت وأصرّتْ أن تجري قرعة بين ثلاثة فقط: مريم ورسمية وعائشة.

أعلنت مريم انسحابها من القرعة بتعليل أن فترتها في الاعتقال قليلة نسبة إلى فترة الأخريات.

لكن لا، يجب ألا نقبل تمييزاً أو شفقة! ويجب ألا نقوم بقرعة أو غيرها. عزية تأخذ الغيار وتستحم ونعمل لها احتفالا حين خروجها.

وتجرأ بعضنا واستحم بالماء البارد بمناسبة وجود قطعة من الصابون.

ماذا عن زيارة أهلنا؟

وكان رد ضابط الشرطة:

- المسؤولون يقولون إن الزيارة ممنوعة قبل انتهاء التحقيق، وإن التحقيق لم ينته بعد!

أثار الجواب هواجسنا.

في المساء، استدعيت عزية للتحقيق، حل القلق مما قد يعنيه التحقيق من جديد. ثم استدعيت حياة ثم انتصار ثم سامية. لم ننتظر طويلاً عندما عادت أربعتهن واحدة تلو الأخرى. كان التحقيق حول الإضراب:

- من التي حرضت على الإضراب؟

وكان الجواب واحداً:

- أنا صاحبة الفكرة! (لقد أكلنا القمل!).

جملة رددتها أربعتهن.

طرح على حياة سؤال:

- وهل اتفقتن على الإجابة نفسها؟

- القمل هو الذي اتفق علينا.

وعادت حياة تضحك من إجابتها.

استغلت عزية فرصة رؤيتهم وسألتهم عن زيارة الأهل؟ قالوا لها:

- إن التحقيق لم ينتهِ بعد، ثم إن أهاليكن لا يسألون عنكن. إنهم يخجلون منكن. لقد لطختن شرفهم عندما دخلتن السجن!

عادت غاضبة. لكنها كانت متحمسة لاكتشافها ادعاءاتهم الكاذبة حول موقف أهالينا.

"قال أهلنا بيخجلوا منا! لازم يقولوا إنهم مقهورين لأن أهلنا بيفتخروا فينا".

على الأرجح، أن أياً منا، لم تكن لديها شكوك حول موقف أهلها منها. لكنها بالتأكيد تفكر بهم وتخشى عليهم. هل حقاً أن أياً منا لم تكن تخشى من موقف أهلها تجاهها؟ ماذا لو حصل أن الأهل أنكروا ابنتهم وقرروا

مقاطعتها؟ لكن هذا غير ممكن؟ أهلنا سيفتخرون بنا والمجتمع كذلك. وإذن ما هذه الخشية على الأهل إن لم تكن خشية على موقفهم؟ موقفهم من ماذا؟ من الآلام والمعاناة التي سيتكبدونها بسبب منا؟ أم من غضبهم؟

والتحقيق لم ينته! فأي الملفات سيفتحونها بعد؟

في ذلك المساء، انزوت كل منا مع أفكارها وساد صمت إلاّ من آهات تسمع بين حين وآخر. أخذت كل واحدة تنسحب داخل نفسها وباتجاه النوم. ولذت بدوري أفكر باحتمالات جديدة في التحقيق، وأكثر ما كنت أخشاه اعتقال ابن عمي خالد.

في الصباح كان الحديث عن الأحلام في تلك الليلة التي دارت معظمها حول الأهل. وسيطرت رغبة رؤية الأهل كأنها حمّى شديدة ومعدية. ولأول مرّة شدّت (النافذة) انتباه الجميع.

ما الذي يمكننا رويته من النافذة؟ وكيف يمكن الوصول إليها وعلوها يربو على أربعة أمتار؟

رتّبنا الفرشات والبطانيات فوق بعضها بسرعة، وضعت كلها تحت النافذة وشكّلت كومة. صعدت فوقها "عزية" كونها الأطول في المجموعة. اعتلت حياة فوق أكتافها، وبعضنا أسندهما. وكانت المفاجأة حين هتفت حياة:

- يا سلام! في ناس كثير برّة، كلهم في الساحة أمام الكنيسة.

ثم انفعلت كثيراً كادت ترقص فوق الأكتاف حين تأكدت من رؤية أمها: "هَيْ أمي، هَيْ أمي". وازدادت انفعالاً: "هَيْ كمان أختك يا عزية"!

وخرجت الشياطين من أعماقنا، كل واحدة ترغب في الإطلالة عبر الطاقة لتنظر علها ترى أهلها.

صرخت حياة بأعلى صوتها:

"يما"

أخذت تنقل لنا تفاصيل الحركة في الخارج ونحن شاخصات بعيوننا ورؤوسنا وقلوبنا نحوها.

- "والله العظيم إن أمي سمعتني! هيها، تلفتت حوليها، هيها تبحث عن مصدر الصوت. هيها قامت، ما زالت تبحث". نادت حياة من جديد:

"يماااا".

عادت لوصف حركة أمها: هَيْها عرفت اتجاه الصوت، هيها جاية باتجاهنا. وعندما أصبحت عند اقرب نقطة ممكنة من (الطاقة)؛ مصدر الصوت. بدأت حياة بنقل أخبارنا؛ عددت أسماءنا.

وبدأت أمها تسأل بدورها:

- هل أنت متأكدة أن عائشة عندك؟

- آه، والله العظيم إنها عندي.

- كيف هي؟

- بخير.

- هل أنت متأكدة أنها بخير؟

- والله العظيم إنها بخير.

- هل أستطيع سماع صوتها؟

ونزلت حياة عن الأكتاف وصعدتُ مكانها. وسألتني:

- كيف عيونك؟

- أنا بخير وعيوني بخير.

لكنها عادت تلح بالسؤال عن عيوني. قلقت من إلحاحها بالسؤال عن عيوني فسألتها بدوري:

- لكن لماذا تسألين عن عيوني؟

- إن خبراً يتم تداوله بين الأهل من أنهم خلعوا لك عيناً!

"يا الهي! أي قلق وأي حزن وأي شقاء أصاب أمي وأختي وأسرتي إن وصلتهم الإشاعة؟ أي إشاعة لئيمة تأكل الأعصاب وتثير الرعب بين الناس"؟

تذكرت ما كان يتم تداوله عن فعل الإشاعات التي رافقت مذبحة دير ياسين عن الاغتصاب وقتل الأطفال وبقر البطون، وما أثارته من فزع وخوف بين الناس دفع بهم إلى الهرب من بيوتهم. واكتشف الناس، لكن بعد فوات الأوان، أن تلك الإشاعات كانت من فعل العصابات الصهيونية، رغبة منها في نشر الذعر بين الناس ودفعهم إلى الهجرة ليستولوا على الأرض والبيوت خالية من أهلها. وها هم ينشرون هذه الإشاعة لنشر الرعب بين الفتيات والأهل، لتخلق قيداً على مشاركتهن في النضال الوطني!

في تلك العجالة، علمنا أن الأهل يأتون كل يوم. ينتظرون من الصباح حتى المساء، على أمل زيارتنا. في نهاية النهار، يأتي أحد المحققين ويقول: نأسف لهذا اليوم، أحضروا غداً فربما تستطيعون الزيارة. يحضرون في الغد، يحملون الأكل والملابس، يعطون الأكل للحراس على أمل إيصاله لنا، وتبقى الملابس لتعود معهم.

انتبه الجنود، ومن أبراج الحراسة فحذّروا الشرطة في الداخل. أسرعت الشرطة إلى زنزانتنا. ليلى قمري التي وقفت عند الباب للحراسة، حذّرتنا: "إجت الشرطة، إجت الشرطة". بسرعة البرق تفرقنا. جلست كل واحدة في مكانها، كأن شيئا لم يكن. عادت الشرطة أدراجها حين لم تلحظ شيئاً، وحين غابت الشرطة عدنا نبني هرمنا الذي يوصلنا إلى الطاقة. تكررت اللعبة أكثر من مرة حتى تنبه الشرطي في المرة الثالثة إلى وضع الفرشات، فأمر بإبعادها من تحت النافذة. لكن واحدة منا لم تستجب. فاستدعى شرطياً آخر وأبعدها بنفسه.

تصدت الشرطة للأهل في الخارج ومنعتهم من الاقتراب، بينما بقي شرطي أمام باب الزنزانة يرقبنا. وصلنا صوت الأهالي تشتبك مع الشرطة. فانطلقت حناجرنا عاليا تنشد:

باسم الحرية

نضحي بالأرواح

فلسطين عربية

هي أرض الكفاح

وصلت أصواتنا إلى الأهل، هاجوا وماجوا واشتبكوا مع الشرطة. ثم أخذوا ينشدون بدورهم، وتوحدت أصواتنا وأصوات الأهل معاً، وجاشت المشاعر وهتفت الحناجر، ولم نعد نستمع إلى تحذيرات رجال الشرطة الذين تجمعوا أمام باب الزنزانة بكثرة، يصرخون بنا كي نسكت دون أن نستمع لصراخهم.

غَيَّرَ الحدث وَقْع الزمن الثقيل. وخفف من القلق على الأهل. خلق انفراجا لكل واحدة منا لمجرد أن رسالة عن وجودها بخير قد طُيِّرت لأهلها، وجو جماعي حيوي ساد بيننا.

في اليوم التالي، تم نقلنا من ذلك المكان إلى زنزانة عزل تام.

الزنزانة الجديدة مصممة للعزل. تقع مع زنزانة تقابلها في أقصى مكان من ممر طويل وضيق ومعتم، وفصلت الزنزانتان بباب حديدي مصمت، فإذا تم إغلاقه فمن الصعب أن يعرف شيء عن الزنزانتين أو من بداخلهما.

العتمة شبه مطبقة، اقتضت منا فترة من الزمن حتى استطعنا رؤية ملامح بعضنا وملامح المكان. انبعثت رائحة رطوبة قوية أثارت موجة من السعال لم يهدأ إلاّ بعد حين. مساحتها تقل عن ربع مساحة الزنزانة الأولى. بها تخت حديدي واحد مثبت في الزاوية الداخلية يقابله مرحاض صغير بالكاد يستطيع الشخص تحريك جسمه فيه قليلاً. ليس للزنزانة نافذة، ولكن "كوة" صغيرة كتلك التي تعمل لأبراج الحمام أو أصغر. تقع أسفل السقف مباشرة، تدخل منها حزمة ضوء صغيرة جداً ترشق السقف كإشارة تدلل على بعده عنا وتوحي بأن المكان حفرة أو بئر عميقة.

خيمت الصدمة من المكان الجديد علينا. ساد صمت ثقيل، لم يقطعه إلا صوت غناء من الزنزانة المقابلة في أغنية لعبد الحليم حافظ:

"يا هلي يا هلي، يكفي ملامي والعتاب لا تلوموني ترى حالي صعيب"

صوت جميل، حزين ومؤثر حتى بدت الأغنية كأنها نهر من الحزن العميق، يفيض في النفس، فيغسلها ويسمو بها، رغما عن وطأة ذلك المكان الكئيب. كأنما فكت الأغنية عزلتنا وأضاءت عتمة الزنزانة وأبعدت رطوبة المكان.

كان صاحب الصوت الجميل هو الرفيق "عبد اللطيف غيث". وقف خلف قضبان باب الزنزانة وأمسك بها، كان جسمه نحيلاً حتى بدا كأنه ظل لجسم، وزادت عتمة المكان من تحويله إلى شبح، لكنه أضاء لنا المكان.

كم أغبط من وهبهم الله نعمة الصوت الجميل! وكيف يمكنهم من شكر الله على هذه النعمة غير التدليل عليها بالشدو والغناء؟

كل شيء في هذا المكان أصبح ثقيلاً. حتى وجودنا معاً أصبح غير محتمل، لقد أصبحنا نشبه قطع السمك في علبة السردين.

كيف السبيل لتخفيف وطأة هذا الثقل وكآبته؟

حين تنغلق الفرص، لا بد من البحث في الذات.

الشعر والغناء أوعية للروح وآفاق لها.

إذن، نجري مبارزات شعرية!

تحمس الجميع وشارك في المبارزات الشعرية.

"وللحرية الحمراء باب بكل يدٍ مضرجة يدق"

قاف!

"قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا"

واستغرقتنا المبارزة الشعرية وشارك فيها الجميع.

ننشد؟

ننشد.

أنشدنا. ثم عكفنا على تأليف كلمات جديدة للأناشيد والأغاني عبّرنا فيها عن واقعنا الجديد وعن أحلام الحرية والثورة. أحاول أن أتذكر بعضا منها الآن دون أن تسعفني الذاكرة. لكني ما زلت أذكر النشوة التي كانت تجتاحنا والتصفيق الذي يدوي كلما أضافت واحدة منا بيتاً جديداً على الأغنية أو الأنشودة.

نلعب؟

نلعب.

أجيبي عن الأسئلة دون استخدام كلمة نعم أو لا.

ازداد الحماس للعبة وعلت الضحكات على أخطائها.

ما زلنا نلعب ونضحك حين فاجأتنا الشرطة تقف خلف قضبان باب الزنزانة، وعلى وجوههم علامات تعجب ودهشة. فرقعنا ضحكة جماعية بعد انصرافهم. سمعوها فعادوا من جديد يستطلعون أمر الضحك ثم انصرفوا. بادرت "انتصار" في تمثيلهم وتقليد حركتهم وتعبير وجوههم. كانت تمثّلهم بصور (كاريكاتورية) فأثارت مزيداً من

الضحك. وتشجعت حنان وعايدة وليلى عودة وشاركن في التقليد، لنكتشف أن التمثيل وسيلة عظيمة لتحدي العزلة والعتمة وقسوة المكان. تحولت الزنزانة رغم ضيقها إلى مسرح عليه تنافس كبير خلق تفاعلاً جميلاً بين المجموعة.

عدد من الشرطة يزيد على سبعة أفراد، جاءوا يقتحمون المكان. أخرجوا عدداً منا إلى زنزانة ثانية وراحوا يفتشون الفرشات والبطانيات وتفقدوا المرحاض أيضا.

غريب؟ ما الذي يخافونه وما الذي يفتشون عنه؟

لا شك أنهم يخافون الضحكة، وربما يفتشون عن سرها. لكنهم كانوا يضلون السبيل.

في اليوم التالي تم استدعائي للتحقيق. لم يأخذوني إلى عمارة التحقيق، بل تم ذلك في أحد مكاتب الشرطة في مبنى التوقيف. كانت الأسئلة عادية وطلبوا معلومات ذاتية؛ الاسم الكامل والعمر والتعليم والعمل ... الخ. ثم سألوا عن بعض الأسماء وقلت أنني لا أعرفها. وأخيراً خاضوا مناقشات سياسية.

تم استدعاء كل الفتيات على المنوال نفسه. كان ذلك إيذاناً بأن التحقيق قد انتهى.

بادرت عزية من جديد وقالت:

- نسيت كيف تكون أشعة الشمس! البرودة وصلت نخاعي الشوكي. يجب أن يخرجونا (فورة) في الشمس، ونريد غيارات وحمّاما. لم يف الضابط بوعده بإدخال غيارات وتزويدنا بالماء الساخن، هل فكر أن

غياراً واحداً وسطلاً من الماء الساخن يكفينا جميعا؟

طلبنا الضابط المسؤول وطرحنا طلباتنا مذكرين لهم باتفاقية جنيف وحقوق الإنسان التي تضمن للأسير أن يخرج إلى الشمس يومياً ويزود باحتياجاته كلها.

وعد بإخراجنا إلى الشمس لربع ساعة، وبتزويدنا بالماء الساخن والصابون وإدخال غيارات من الأهل. وقد وفى بجميع وعوده. أحضرت الغيارات في الحال (ما يدلل أنه كان يحتجزها). أحضر لي غيارين من ملابسي التي كنت قد اشتريتها من عمان في مشواري الأخير ومعها ليفة حمام وصابون. ما زلت أذكر الانفعال الذي اعتمر بداخلي حين وقعت عيوني على ملابسي الشخصية، كأنما كانت الماء الذي يلبي عطشي، أو الوعاء الذي لمّ شتاتي. كانت رسالة تطمئنني على أهلي وبأنهم بخير يحبونني ويتابعون أمري. كانت عالمي الخاص الذي ابتعدت عنه دهراً من الزمن (ما يقارب الشهر ونصف الشهر). نعم، كانت حميمية أهلي وخصوصية عالمي تضيئني وتدفئني رغم عتمة ذاك المكان وبرودته.

حصل الجميع على غيارات. وأحضر الماء الساخن والصابون. واحتفلنا بنعمة النظافة وحميمية الأهل. وعند العصر تم إخراجنا إلى ساحة سجن المسكوبية.

لن أنسى ذلك اللقاء الغريب مع أشعة الشمس. لم أستطع فتح عينيّ في البداية، أغمضتهما وغطيتهما بيدي ورمشت كثيراً قبل أن أستطيع التأقلم مع تلك الإضاءة المفاجئة. بدت أشعة الشمس كالحة ومريضة، باردة وغير أليفة. كانت الشمس في ذلك المكان شيئاً

مختلفاً تماماً عن الشمس التي كنت أعرفها. كانت الشمس أسيرة وسجّانة في الوقت ذاته.

طلبت الشرطة منا أن نبقى في قرنة محددة من الساحة المستطيلة الواسعة تقريباً والمحاطة بجدران أبنية السجن.

يقسم الساحة طوليا شبك يرتفع أكثر من مترين، ويفصل القسم الذي نحن فيه عن القسم الآخر الذي تحيطه زنازين وأقسام أخرى للسجن. في الجهة المقابلة للجهة التي دخلنا منها، باب من قضبان يبدو أنه رئيسي، توّقف خلفه بعض الشباب حين كانوا يمرون، إلا أن الشرطة سرعان ما أبعدتهم، وهناك في واجهة أخرى أبواب مصمتة إلا من كوة صغيرة جداً في قسمها العلوي.

تأملت وجوه الرفيقات، كانت صفراء باهتة، كما لو أنها أفرغت من الحياة.

كان الجو بارداً وغائماً جزئياً. لسعتني برودة الجو، فانزويت إلى جانب الحائط وكذا فعلت معظم الفتيات.

كانت الفورة ربع ساعة. عدنا بعدها إلى الزنازين، كان لدينا ما نتحدث عنه؛ عدد الزنازين، أرقامها، رؤوس الشباب التي كانت تطل من خلف القضبان، انتصار إرادتنا.

وكان المساء.

وقفت حياة كعادتها في مكانها المألوف خلف قضبان الباب. وعندما مرّ ضابطا الشرطة أثناء تبديل غفارتهما مساء سمعتهما يتحدثان عن نقل خمس من الفتيات إلى سجن (رام الله).

"جاء الفرج"، هتفت في نفسي، وكان إحساسي الداخلي يؤكد أني واحدة من الخمس، أو هكذا كانت أمنيتي. هناك سأكون قريبة من أهلي فلا أكلفهم مشقة السفر.

لم أنم تلك الليلة إلا قليلاً وأنا أنتظر مجيء الصباح، والانتقال إلى رام الله.

تجربة الكتابة

على أثر اصدار كتابي "أحلام بالحرية" تمت دعوتي من أكثر من جهة للتحدث عن الكتاب. ولأني أعتقد أن الكتاب منذ لحظة خروجه من المطبعة يتحرر من سلطتي ليصبح مُلْكاً للقارئ الذي يستطيع أن يراه ويتكلم عنه بما يخالفني وبرؤياه الخاصة، فقد اعتذرت عن الحديث عن الكتاب لصالح الحديث عن تجربة الكتابة.

منذ خروجي من المعتقل، والأصدقاء والمعارف يطالبونني بكتابة تجربتي الاعتقالية. ورغم ايماني بأني سأكتبها يوما ما، إلا أني لم أحاول الكتابة بشكل جدي لأكثر من عشرة سنوات بغض النظر عن الأسباب المدركة عندي وغير المدركة.

تكررت النصائح والحث على الكتابة، وقدمت اقتراحات كثيرة، منها تسجيل التجربة، ومن ثم كتابتها، أو تكليف غيري بكتابتها. وحين التقيت مع الشاعر والأديب ابراهيم نصر الله أعرب عن رغبته بحماسة شديدة، في كتابة تجربتي النضالية، واقترح تسجيل التجربة ليصوغها. أغراني العرض فوافقت وسجلنا عددا من الأشرطة. لكن حسا غامضا

ورافضا كان يتململ في وعيي، إلى أن قررت التوقف لأكون منسجمة مع نفسي، واعتذرت من الشاعر الذي لا بد أني قد خذلته. فقد أدركت بعمق أني أنا التي يجب أن أكتبها. فإن كتابتها بواسطة غيري لن تكون هي بعينها. كان ذلك عام ١٩٨٣م.

وحين وقع كتاب "شرق المتوسط" لعبد الرحمن منيف بين يدي وأخذت أقرأه، لم أستطع تكملته، لعدم قدرتي على تحمل روح الانطفاء والقهرالتي شعرتها نسغا له. ورأيت في تجربتنا وجها آخر ولونا آخر من معاناة الإنسان العربي يجب كتابته. حينها قررت بشكل واضح بأني سأكتب.

وأخذت قراري ذاك محمل الجد.

كان التنفيذ صعبا؛ فأنا لست كاتبة، واستحضار التجربة نفسها وفي ظل استمرار ظروف تشبهها قسوة - أعني الاحتلال والتشرد والقمع- لم يكن أمرا سهلا.

اصتعصت عليّ اللّغة، كأني غير قادرة على تركيب جملة مفيدة. ورافقني شعور بأني أقوم بعمل شاقّ، لا أرغب في الاقتراب منه، وأسرع في الهروب منه. فأعيد أوراقي الى مكانها، بيضاء، بعد أن أكون قد مزقت بعض السطور، التي كتبتها، ثم شطبتها، معللة فشلي بالقول أني لم أخلق للكتابة. إلى أن صدمت، حين وقع بين يدي كتاب لأحد الإخوة، الذين أمضوا فترة طويلة في السجن. وكان قد أصدر كتابا عن تجربة الاعتقال. وتفاجأت بأنه تعرض لتجربتنا، نحن الفتيات، وأوجزها في صفحة تقريبا، كتجربة هزيلة، وبصفتنا لم نتمتع بوعي سياسي، أو تنظيمي، ولم نكن نعرف أولوياتنا!

شكّل ما كتبه هذا المناضل صدمة حقيقية لي. فكيف له أن يكتب عن تجربة بينما يجهلها؟ ويكتب باستخفاف وعدم تقدير لتجربة عملاقة (حسب تقديري)! كيف تجرأ؟ ربما يعتقد، أننا ضلع قاصر، فأعطى لنفسه الحق في التعرض لتجربتنا، دون أن يخشى محاسبة.

أحسست بتحدٍ كبير، وأدركت أن من لا يروي روايته بنفسه، فإنه يسمح لآخرين صياغتها على هواهم.

رافق الكتابة شعور من التحدي وحس بالمسوؤلية. ومع الكتابة، وجدت نفسي، أدخل في حالة من الاكتئاب، تطول لأكثر من أسبوع، وأحيانا تدوم عدة أسابيع. وفي إحدى المرات، تعالت دقات قلبي وتسارعت فتم نقلي إلى المستشفى خوفا من نوبة قلبية. تكررت الحالة فأدركت بأني ما زلت غير مستعدة لنبش التجربة وكتابتها. فقررت الانتظار لفترة أخرى، على أمل أن يأتي وقت أكتب فيه، بألم أقل.

حين عدت لقراءة ما كتبت، رفضته وضحكت من لغتي. كانت لغة جافة، باردة، عامة. أقرب إلى البيانات السياسية منها إلى تجربة خاصة. وقلت في نفسي: هذه الكتابة لم تقترب أبدا من التجربة التي هي في وعي شيء آخر غير ذاك الكلام العام والجاف. حاولت الكتابة من جديد، وكنت أطلع بعض الأصدقاء والصديقات على بعض ما أكتب على أمل أن أسمع وجهة نظر تضيء لي. لكني كنت أشعر أنهم جميعا يجاملوني. وحدها صديقة لي (هي أستاذة جامعية) لم تجاملني، وأسمعتني التعليق ألأهم. قالت: قرأت الأحداث، وكنت أفتش عن عائشة في هذه الأحداث فلم أجدها. أين أنت في كل ذلك؟

شكرا لهذه الصديقة، كانت على حق، وملاحظتها كانت هي المفتاح.

حاولت من جديد. لم يكن من السهل مغادرة خطاب الشعارات والبيانات السياسية. أكتب وأعيد الكتابة من جديد. وكاد اليأس يحيط بي. فكيف لتجربة أو حياة هي في عمق كينونتي أن أعبر عنها، بما يليق بها، دون أن أعلبها في لغة جافة؟ وأصبح همي ليس تسجيل الأحداث، وإنما ايجاد اللغة الخاصة بهذه التجربة. أكتب، ثم أقرأ وأمزق، وأعيد الكتابة من جديد. وفجأة، وفي لحظة، شعرت أني اخترقت الجدر، وامتلكت لغتي الخاصة. وجريت الى "الصديقة" وأطلعتها على بعض ما كتبت، وعندها استمعت لتعليقها الثاني الذي دغدغ مشاعري. فقد كنت بحاجة حقيقية للّتشجيع.

لكن في ذلك الوقت داهمتني حالة انتظار العودة إلى الوطن. وكانت حالة مشحونة بالانفعالات سيطرت عليّ كليا. شدتني كوتر قوس معد للانطلاق، وتلبستني كجني كأن الوطن سيهرب من يدي إن لم أحافظ على ذلك الانشداد المنهك طوال الوقت. قضم الانتظار أعصابي وطاقتي وانزوت الكتابة في ركن قصي.

والعودة الى الوطن لم تكن مفروشة بالورود والرياحين. أقل ما فيها كانت تلك الاتهامات التي تقذف في الوجه لمجرد أنني عائدة! دخلت في المرحلة الجديدة في حالة من ضياع التوازن النفسي، إضافة الى حالة من التشرد فوق أرض الوطن حين أراد الاحتلال إبعادي من جديد. وتطلب مني زمنا للتكيف مع كل المستجدات؛ السياسية والمعيشية والاجتماعية والفكرية. في ظل هذا الوضع قررت العودة للكتابة، ربما بهدف التزود بعوامل قوة وصمود، في مواجهة الواقع السوريالي، الذي نعيشه، فوق أرض الوطن.

تجربة جديدة، كانت الكتابة، ورحلة لاكتشاف الذات، وفهم للتجربة

من جديد، وإعادة انتاج التجربة بالكلمات والصور. وعدت لـ"شرق المتوسط" لأتأمل الكتابة والأدب الجميل لهذا الروائي العظيم، وأصبحت قراءاتي للآداب قراءات للتأمل والتعلم وليس للمتعة فقط كما كنت أقرأ سابقا. وكان التحدي الحقيقي الذي أواجهه هو: كيف للكلمات أن تختزن التجربة حية ونابضة، كما كانت في الواقع؟

كانت الكتابة ليست معاناة فحسب ولكنها متعة أيضا. تضيء النفس وتحرر من إسار تجربة، أثّرت بعيدا في حياتي وعلى معالم شخصيتي.

حين دفعت الكتاب للمطبعة، قلت بأني تحررت من آلام التجربة.

ولكن؛ هل حقا، تحررت من السجن ومن آثاره ومن آلام التجربة؟

على إثر اصدار كتابي في جزئه الأول، تم استضافتي في برنامج "للنساء فقط" على فضائية الجزيرة. وفاجأتني المذيعة بإصرارها على ضرورة التحدث عن وسائل التعذيب، وبالذات ما يتعلق بأكثر اللحظات ألما وقسوة. ووجدت نفسي أرفض الخوض في الحديث كما كانت تود مقدمة البرنامج. وغداة اللقاء، وبالضبط، في السادسة صباحا، صحوت على صوت بكائي، الذي لم استطع ايقافه، لفترة تقارب الساعة. كانت روحي تنزف ألما كأن الجرح ما زال طازجا بعد ٣٥ سنة!.

كيف لا يكون طازجا؟ وكان الوصول الى الجسر، الذي لا يبعد عن بيتي، أكثر من عشرين كم، قد استغرقني ثماني ساعات بكاملها، ذقت فيها، على الحواجز والحدود، من القهر، والإذلال، ما لا طاقة لروحي على احتماله؟ بينما لم يستغرقني السفر من عمان إلى الدوحة، إلاّ ثلاث ساعات ونصف الساعة؟

كيف لا يكون طازجا؟ والألم والمعاناة، بقيا على تواصل مستمر، سواء في الإبعاد، أو حتى في العودة إلى الوطن؟

ويلح علي سؤال: لماذا لم أنفجر بكاء بعد تلك الليلة الرهيبة؟ وبالعكس، فقد صحت روحي على فرح شفيف وهي تسبح في علياء من الصفاء والنور؟ بينما أنفجر بكاء ونشيجا، غداة برنامج إعلامي، على محطة فضائية، واسعة الانتشار، وفي غرفة فاخرة، في فندق فاخر، على شاطئ بحر جميل؟

أية مفارقة هذه؟ وكيف يمكن فهمها؟

واحتجّت بعض الصديقات لامتناعي عن الكلام، في البرنامج الفضائي المذكور. أخبرتهن بأمر البكاء. قالت بعضهن: عائشة، إن الكتابة لم تحررك من آلام التجربة، وهذا ملاحظ في كتابك. فحين تحدثت عن تلك الليلة الأصعب، تغيّر ايقاعك، وأسرعت كثيرا في عبورها، كأنما تخشينها.

تناولت الكتاب وقرأته كقارئة. كانت الملاحظة دقيقة. استحضرتني صورتي طفلة صغيرة، تمسك بأطراف ثوبها، وتجري لتعبر الطريق كبرق من أمام ضريحي الشهيدين؛ عبدالله وفرح عمار، اللذين كانا إلى جانب الطريق. تجري، لا تلوي على شيء، خوفا من أشباح تخرج من الضريحين، وتلاحقها. وها أنا مثل تلك الطفلة، أعبر بسرعة دون توقف، أو آخذ نفساً، حين تحدّثت عن تلك الليلة المروعة.

لكن، ما الذي لم أقله عن تلك الليلة الرهيبة؟ ليلة العاشر من آذار عام١٩٦٩م؟ ألم أعبر عن كونها صورة مكثفة للصراع بين إرادتين متعارضتين متصادمتين ومتلاحمتين؟.

ألم أقل كل شيء، ودفعة واحدة، كما نفعل مع جرعة دواء شديد المرارة؟ دفعة واحدة، مكثفة، كما تكثف الألم كله، في تلك الليلة، على رأس دبوس، وخز دماغي، فلم تتحمله روحي، فزهقت؟

هل كان في ظل تلك الكثافة، مجال للتأمل؟ أو لطرح أسئلة؟ أو لاستحضار كناية، أو تشبيه، أو استحضار قصص، تقارب الحدث، أو ترتبط به؟ هل كان مجال، والتاريخ قد تكثّف حتى تحوّل إلى سائل شديد الكثافة، لا فواصل فيه، ولا فراغ، وجرى في نخاعي الشوكي، لكنه انفجر في كينونتي؟ ألم أقل أنه رغم كثرتهم وتفوقهم المطلق وأيديولوجيتهم العنصرية التي تبرر لهم سحق الآخر، لم تحقق لهم الفوز، وأن شابة وحيدة معزولة إلا من إرادة الحق وإرادة مقاومة الظلم لم تنهزم أمام جبروتهم؟ هل حقا كان علي تناول تلك التجربة بإيقاع أكثر بطئا، لأفسح المجال لتأمل أكثر، وتحرر منها أنجع؟

هل حقا، لم تحررني الكتابة بعد من ألم التجربة؟

وإذاً، لماذا الإنفجار في بكاء لم يكن توقفه سهلا، وفي غرفة فاخرة في فندق فاخر على شاطئ جميل هناك في الدوحة، بعيدا عن الاحتلال وحواجزه وقهره؟

وهل كان شعوري بعد اصدار الكتاب بالتحرر منها، وهماً؟

كنت أتأمل الملاحظة وأناقش مع نفسي سلسلة من التساؤلات، بينما أتابع أخبار هجوم جيش الاحتلال وصوره، على مخيم جباليا. . . وفجأة توحدت الصورتان!

يقصفون المخيم، من الأرض والسماء، يدمرون، يقتلون، يقطعون

الماء والكهرباء، يجرفون الأرض والبيوت والأشجار، يفرغون المنطقة من الهواء ويزرعونها موتاً ورعباً ودماراً. وفي خضم ذاك الجحيم، انبلجت صورة، كبرق، يشق الظلمة، كجوهر. لقطة سريعة لأطفال جباليا، يخرجون من ذاك الدمار، يلوحون بأيديهم، ويقذفون حجارتهم، وهم يهجمون على بلدوزر عملاق، يجرّف الأرض. لا، كانوا هم العمالقة. رأيت أيديهم المطوحة بالحجارة، تستل التاريخ، منذ بدأ أول انسان في مقاومة الظلم، يستلونه كإرادة متواصلة، كما تتواصل مياه نهر، وتندفع به نحو المستقبل! كانت هي نفسها الإرادة التي امتشقتها، في أحلك اللحظات قسوة، لتزهو بها روحي انتصاراً على مجرمي حرب.

وأعود للكتابة ربما لتأكيد أن تحويل التجربة العملية إلى وعي هو الأهم في التجربة ذاتها، لأنه زبدتها، ولأنه النسغ الذي يمنعها من الذبول والموت، ولأنه (وهذا هو الأهم) لا يسمح للآخر بالاستمرار في السيطرة على رواية التاريخ وتصنيعه بما يتناسب مع أيدولوجيته العنصرية. ولأنه لا بد من محاكمة المجرم على جرائمه، ولا تقادم على جرائم الحرب.

ولأقول أيضا أن الرجال ليسوا أفضل من النساء، وأن النساء لسن أقل من الرجال. وأن الوطن والمستقبل والحرية والكرامة مسؤولية الجميع، وأن الصمود مجدي.

منشورات مواطن

سلسلة دراسات وأبحاث

"وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ": الاسلاميون والديمقراطية
رجا بهلول

فلسطين الى أين؟ تلاشي حل الدولتين (باللغة الإنجليزية)
تحرير جميل هلال

الطبقة الوسطى الفلسطينية، بحث في فوضى الهوية والمرجعية والثقافة
جميل هلال

النظام السياسي الفلسطيني بعد اوسلو: دراسة تحليلية نقدية (طبعة ثانيه – مزيدة)
جميل هـــلال

نظريات الانتقال إلى الديمقراطية: إعادة نظر في براديغم التحول
جوني عاصي

من التحرير إلى الدولة: تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٤٨ – ١٩٨٨
هلغى باومغرتن

تقاسـيم زمّـار الحـيّ – مقـالات
فيصـل حـوراني

بروز النخبة الفلسطينية المعولمة (باللغة الانجليزية والعربية)
ساري حنفي وليندا طبر

الحداثة المتقهقرة طه حسين وأدونيس
فيصل دراج

صفد: في عهد الانتداب البريطاني ١٩١٧ – ١٩٤٨
مصطفى العباسي
بالتعاون مع مؤسسة الدراسات الفلسطينية والمقدسية

الجبل ضد البحـر
سليم تماري

من يهودية الدولة حتى شارون: دراسة في تناقض الديمقراطية الإسرائيلية
عزمي بشارة

تشكل الدولة في فلسطين (باللغة الانجليزية)

تحرير: مشتاق خان، جورج جقمان، انج أمندسن

مستقبل النظام السياسي الفلسطيني والآفاق السياسية الممكنة

تحرير: وسام رفيدي

وقائع مؤتمر مؤسسة مواطن، ومعهد ابراهيم ابو لغد ٢٠٠٤

التربية الديمقراطية، تعلم وتعليم الديمقراطية من خلال الحالات

ماهر شلبي

حركة معلمي المدارس الحكومية في الضفة الغربية ١٩٦٧-٢٠٠٠

عمر عساف

المجتمع الفلسطيني في مواجهة الاحتلال: سوسيولوجيا التكيف المقاوم خلال انتفاضة الاقصى

مجدي المالكي واخرون

اسطورة التنمية في فلسطين الدعم السياسي والمراوغة المستديمة

خليل نخلة

جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨-١٩٤٨

فيصل حوراني

القطاع العام ضمن الاقتصاد الفلسطيني

نضال صبري

هنا وهناك نحو تحليل للعلاقة بين الشتات الفلسطيني والمركز

ساري حنفي

تكوين النخبة الفلسطينية

جميل هلال

الحركة الطلابية الفلسطينية الممارسة والفاعلية

عماد غياظة

دولة الدين، دولة الدنيا: حول العلاقة بين الديمقراطية والعلمانية

رجا بهلول

النساء الفلسطينيات والانتخابات، دراسة تحليلية

نادر عزت سعيد

المرأة وأسس الديمقراطية

رجا بهلول

النظام السياسي الفلسطيني بعد اوسلو: دراسة تحليلية نقدية
جميل هلال
ما بعد اوسلو: حقائق جديدة (باللغة الانجليزية)
تحرير: جورج جقمان
ما بعد الازمة: التغييرات البنيوية في الحياة السياسية الفلسطينية، وآفاق العمل
وقائع مؤتمر مواطن ٩٨
التحرر، التحول الديمقراطي وبناء الدولة في العالم الثالث
وقائع مؤتمر مواطن ٩٧
اشكالية تعثر التحول الديمقراطي في الوطن العربي
وقائع مؤتمر مواطن ٩٦
العطب والدلالة في الثقافة والانسداد الديمقراطي
محمد حافظ يعقوب
رجال الاعمال الفلسطينيون في الشتات والكيان الفلسطيني
ساري حنفي
مساهمة في نقد المجتمع المدني
عزمي بشارة
حول الخيار الديمقراطي
دراسات نقدية

سلسلة مداخلات واوراق نقدية

تهافت أَحكام العِلم في إحكام الإيمان
عزمي بشارة
الديمقراطية والإنتخابات والحالة الفلسطينية
وليم نصار
إطار عام لعقيدة أمن قومي فلسطيني
حسين آغا وأحمد سامح الخالدي
نحو أممية جديدة: قراءة في العولمة / مناهضة العولمة والتحرر الفلسطيني
علاء محمود العزة وتوفيق شارل حداد
التنظيمات والأحزاب السياسية الفلسطينية
جميل هلال

الأحزاب السياسية الفلسطينية والديمقراطية الداخلية

طالب عوض وسميح شبيب

الراهب الكوري .. سَفَر وأشياء أخرى

زكريا محمد

واقع التعليم الجامعي الفلسطيني: رؤية نقدية

ناجح شاهين

طروحات عن النهضة المعاقة

عزمي بشارة

ديك المنارة

زكريا محمد

لئلا يفقد المعنى (مقالات من سنة الانتفاضة الاولى)

عزمي بشارة

في قضايا الثقافة الفلسطينية

زكريا محمد

ما بعد الاجتياح: في قضايا الاستراتيجية الوطنية الفلسطينية

عزمي بشارة

المسألة الوطنية الديمقراطية في فلسطين

وليد سالم

الحركة الطلابية الفلسطينية ومهمات المرحلة تجارب وآراء

تحرير مجدي المالكي

الحركة النسائية الفلسطينية اشكاليات التحول الديمقراطي واستراتيجيات مستقبلية

وقائع مؤتمر مواطن ٩٩

اليسار الفلسطيني: هزيمة الديمقراطية في فلسطين

علي جرادات

الخطاب السياسي المبتور ودراسات أخرى

عزمي بشارة

أزمة الحزب السياسي الفلسطيني

وقائع مؤتمر مواطن ٩٥

المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في فلسطين

زياد ابو عمرو واخرون

الديمقراطية الفلسطينية
موسى بديريي واخرون
المؤسسات الوطنية، الانتخابات والسلطة
اسامة حلبي واخرون
الصحافة الفلسطينية بين الحاضر والمستقبل
ربى الحصري واخرون
الدستور الذي نريد
وليم نصـــار

سلسلة اوراق بحثية

دراسات اعلامية ٢
تحرير: سميح شبيب
دراسات اعلامية
تحرير: سميح شبيب
الثقافة السياسية الفلسطينية
باسم الزبيدي
العيش بكرامة في ظل الاقتصاد العالمي
ملتون فيسك
الصحافة الفلسطينية المقروءة في الشتات ١٩٦٥ -١٩٩٤
سميح شبيب
التحول المدني وبذور الانتماء للدولة في المجتمع العربي والاسلامي
خليل عثامنة
المساواة في التعليم اللامنهجي للطلبة والطالبات في فلسطين
خولة الشخشير
التجربة الديمقراطية للحركة الفلسطينية الاسيرة
خالد الهندي
التحولات الديمقراطية في الاردن
طالب عوض
النظام السياسي والتحول الديمقراطي في فلسطين
محمد خالد الازعر

البنية القانونية والتحول الديمقراطي في فلسطين
علي الجرباوي

سلسلة التجربة الفلسطينية

أحلام بالحرية ،الطبعة الثانية، مزيده
عائشة عودة
الواقع التنظيمي للحركة الفلسطينية الأسيرة دراسة مقارنة ١٩٨٨- ٢٠٠٤
اياد الرياحي
مغدوشة: قصة الحرب على المخيمات في لبنان
ممدوح نوفل
يوميات المقاومة في مخيم جنين
وليد دقة
أحلام بالحرية
عائشة عودة
الجري الى الهزيمة
فيصل حوراني
أوراق شاهد حرب
زهير الجزائري
البحث عن الدولة
ممدوح نوفل

سلسلة مبادئ الديمقراطية

ما هي المواطنة؟	المحاسبة والمساءلة
فصل السلطات	الحريات المدنية
سيادة القانون	التعددية والتسامح
مبدأ الانتخابات وتطبيقاته	الثقافة السياسية
حرية التعبير	العمل النقابي
عملية التشريع	الاعلام والديمقراطية

سلسلة ركائز الديمقراطية

التربية والديمقراطية
رجا بهلول
حالات الطوارئ وضمانات حقوق الانسان
رزق شقير
الدولة والديمقراطية
جميل هلال
الديمقراطية وحقوق المرأة بين النظرية والتطبيق
منار شوربجي
سيادة القانون
اسامة حلبي
حقوق الانسان السياسية والممارسة الديمقراطية
فاتح عزام
الديمقراطية والعدالة الاجتماعية
حليم بركات

سلسلة تقارير دورية

تطوير قواعد عمل المجلس التشريعي نحو قانون للسلطة التشريعية
إعداد : جهاد حرب اشراف: عزمي الشعيبي
نحو نظام انتخابي لدولة فلسطين الديمقراطية
جميل هلال،عزمي الشعيبي وآخرون
الاعمال التشريعية الصادرة عن رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية
سناء عبيدات
دراسة تحليلية حول أثر النظام الانتخابي على تركيبة المجلس التشريعي القادم
احمد مجدلاني، طالب عوض

لقد أعادت عائشة عودة إبداع تجربتها الاعتقاليّة بأسلوب أدبيّ روائيّ متوهّج يتسطيع، بجماله وشفافيّته ودفئه، أن "يأسر" القارىء على الفور، لا بمتابعة أدقّ تفاصيل الاعتقال فحسب، وإنما أيضاً في اللغة الّتي تفيض بهذه التفاصيل وعليها ومن خلالها، فتنبض وتشعّ وتفتح كلّ الأبواب المغلقة أمام التلاحم مع هذا الإبداع الإنسانيّ، حتّى وهي تتوجّع وتحزن وتغوص في العتمة والقهر والعزل.

علي الخليلي / جريدة الأيام، رام الله

وأنا أقرأ "أحلام بالحريّة" قلت: ها نحن ننجح أخيراً في كتابة نصّ ناضج فنيّاً وأدبيّاً ولغويّاً، تعبّر صاحبته فيه تعبيراً موفّقاً عن تجربة الفلسطيني في السجون الإسرائيليّة؛ نصّاً يمكن أن يوضع بجدارة إلى جانب رواية "شرق المتوسّط"، وربّما يعود السبب في هذا إلى أنّ عائشة عودة لم تتعجّل الكتابة، فهي الّتي مرّت بتجربة السجن في بدايّة الاحتلال الإسرائيليّ للضفّة الفلسطينيّة عام ١٩٦٧، وانتظرت ثلاثين عاماً ونيّفاً حتّى كتبت نصّها.

عادل الأسطة / جريدة الأيام، رام الله

عائشة كانت الأجرأ في رواية التجربة. بكلمات بسيطة جدّاً وعميقة جدّاً كتبت. عرّتهم وعرّت دعايتهم الديمقراطيّة. كشفت تناقضاتهم وواجهتهم بها... جعلت أحاسيسنا، أثناء القراءة، تصعد حتّى الفرح، وتهبط حتّى الدموع، وتألمنا إلى حدّ الشعور بالألم ليس نفسياً وحسب، بل وأحسسناه عضويّاً في مفاصلنا وأرواحنا، في أعيننا وأرجلنا، في آذاننا ورؤوسنا. نقلتنا إلى عوالم كثيرة. أوقفتنا أمام حقيقة أنفسنا وجهاً لوجه.

وداد البرغوثي / جريدة الأيام، رام الله

لقد انتهت المعركة بهزيمتهم الأكيدة، فلولا تلك الهزيمة لما كان لعائشة عودة أن تعود إلى تلك الساعات الأكثر عنفاً وجنوناً في حياتها كامرأة وسجينة. وتكتب عنها بهذا القدر من الصدق مع الذات والآخر. ولولا تلك الهزيمة الأخلاقية للمحتل لما كان نص الكاتبة عميق الجذور إنسانياً، أن يصل لهذا المدى من البوح والكشف ويصبح بالتالي نموذجاً جميلاً للكتابة العفوية التي تأخذ مفرداتها من خبايا الروح، لتلامس تلقائياً بشفافية وأناقة متناهيتين روح المتلقي وتنبش في خلاياها.

نائل بلعاوي / مجلة الطريق، رام الله

مواطن المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية

ISBN 978-9950-312-37-1